البحث عن أنف

" مجموعة قصصية "

الكتاب : البحث عن أنف - مجموعة قصصية
المؤلف : صالح الصقعبي

تاريخ الإصدار: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤ م
حقوق الطبع : محفوظة للمؤلف

الناشر : الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى
العنوان :٨٢ شارع وادي النيل المهندسين، القاهرة، مصر
تلفاكس : ٥٦١ ٣٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) ٠١٢٢/١٧٣٤٥٩٣
البريد الإليكترونى:m.academyfub@yahoo.com

رقم الإيداع : ١٤٤٩٢ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : 978 – 977 – 6149 - 77 - 9

تحذير :

حقوق النشر : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أى نحو أو بأية طريقة سواء أكانت اليكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابةً ومقدماً.

البحث عن أنف

" مجموعة قصصية "

تأليف

صالح الصقعي

الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

إهداء

الإصرار هو الرافعة الحقيقية لجعل الأحلام حقائق ماثلة فوق الأرض وتحت الشمس. كما أن الإحساس بعدم سلامة الاتجاه هو الخطوة الأولى من خطوات التعرف على الطريق الصحيح .

أهدى هذا العمل المتواضع إلى كل من يربط الفعل بالقناعة، ويأبى أن يكون خانة رقمية هامشية .

أدعوه إلى البحث عن أنفه، والمحافظة عليه حال العثور عليه، وعدم إتاحة الفرصة للأشباح أن تطير الرءوس الصامتة من جديد .

وأتمنى أن تعيش النظرة الثاقبة فى عمق ذاته ولا تموت .

صالح الصقعبي

شكر وتقدير

أتقدم بخالص شكري وامتناني للفنان التشكيلي المبدع الأستاذ / علي بن عبد الله السعيد رئيس لجنه الفن التشكيلي بالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ومدير متحف مدينة بريده سابقا؛ على مجاورة لونه وريشته لحرفي وعبارتي، وتجسيد المشاهد أو المواقف التي حوتها هذه المجموعة، فضلاً عن لوحة الغلاف المعبرة عن نبض حروف هذا الكتاب .

والشكر موصول للأستاذ الدكتور / محمد العبد رئيس قسم اللغة العربية بكلية الألسن جامعة عين شمس؛ الذي كان لكلماته الأثر الكبير في وصول هذا الكتاب لكم أيها الأحبة .

فمنذ أن قرأ بعض نصوص هذه المجموعة وبعد عرضها على (مسطرته) النقدية كتب مشكورا قراءة لمجمل النصوص زادت في إشراقها وانفتاح كل نوافذها لمصافحه نسيم وعيكم. فله جزيل شكري وامتناني ...

صالح الصقعبي

على شان الجمهور

اعتاد التعامل مع الأشياء بحذر شديد.. كان يحسب ألف حساب لغضب زوجته، يعامل أطفاله بمسئولية تامة.. يعرض كل تصرف يقدم عليه كبيراً أو صغيراً على حافظته المعرفية؛ فما اتفق معها أقدم عليه، وما انتفى ابتعد عنه، بل وبرمجه ضمن مؤثرات الشر أو أحد مكونات محور الشر ..

كان يحسب لرأي الناس ألف ألف حساب مردداً قناعة راسخة لديه كإحدى دعاماته الإيمانية (الناس شهود الله في أرضه) ضخامة جثته.. وتفتل عضلاته لم تكن تغريه بالتعالي أو الافتتان بالقوة .

وعلى العكس من ذلك تماماً كان فيلاً في جسده، طفلاً مهذباً في نفسه وتصرفاته.. انحرف الزمن به.. وتبدلت الظروف، واختلفت الأولويات، وتضخمت الاحتياجات.. وتعبت الحافظة على إدراج السبب بالمسبب.. وزادت حدة ألوان المدينة، فأخذت تتداخل مدلولاتها ليضيع السبب عن العلة والعلة عن السبب.. يمتزج بالرأس ويتسنى ما يغتسل الهموم ويريح الفؤاد.. حسب ما قيل له وهو يحتسي أول كأس من المشروب الروحي – كما أضحى يسميه – متناسياً ما تشبع به لبن أمه وهو يلثمه بأنها أم الكبائر.. تاه في الأزقة وتمزقت حبال كثيرة ليس أعظمها ارتباطاً بزوجته وأبنائه.. وتدرج الحال إلى بؤرة المحال.. فأضحي السجن مقراً والكلبش رفيقاً.. كل هذا لم يكن رغم قسوته يعني له شيئاً مهماً؛ لعمق

إحساسه بالخطأ إن لم نقل الخطيئة.. إلا أن ما كان يؤرقه في سجنه إصرار القاضي على علانية العقوبة وأنها ثمانون جلدة لتعاطيه "الكولونيا " المخدرة التي تنفذ بميدان عام..

كان يردد في أحلامه.. ميدان عام.. أنا أتعرى أمام الناس!! ومن هؤلاء الناس؟؟ شهود الله في أرضه كما تقول حافظتي؟؟ أربعون عاماً وأنا أحافظ على صورتي أمام هؤلاء الشهود.. ماذا حصل؟؟ ماذا حل بي؟؟ أيتم كسر كرامتي وحيائي هكذا؟؟!!.

دخل في دائرة سوداء قاتمة، لا يمكن معرفة مشاهدها، حتى حان يوم العقوبة.. كبلت يداه وقدماه وأخذ إلى ميدان التنفيذ.. تم إنزاله من عربه السجن.. تلا أحدهم ما اقترفت يداه من ذنب.. قائلاً: " لقد أقدم الماثل أمامكم على تعاطي الكولونيا المسكر، وقام بضرب زوجته وأبنائه مما اضطرهم إلى طلب الحماية من رجال الأمن، وتم القبض عليه بحال سكر بين؛ لذا صدر بحقه الحكم القاضي بجلده ثمانين جلدة "..

بدأ تنفيذ الحكم.. استوعب جسمه الفيلي تلك السياط بثبات وجلد.. إلا أن أحاسيسه وكرامته انكسرت مع السوط الأول مما دعاه بعد أن قال الجلاد " ثمانين " إلى الالتفات إلى الجماهير المحتشدة في ذلك الميدان، نظر إليهم وبسخرية موجعة قال: " واحدة أخرى على شان الجمهور ").

هي والسيف الخشبي

لم تكن ليلتنا تمر لتنسى، مثلها مثل باقي الأيام والليالي، فقد كان الشارع يعج بالمارة، وروائح الأبخرة تتصاعد من المطاعم والحانات.. والجميع هنا خارج الزمن والمسئولية.. الكل يبحث عن المتعة في مثل هذا الفصل من السنة..

وفي هذا البلد الأوربي البارد يهرب كثيرون من بلادهم طلباً للبراد والخضرة الفاتنة والوجوه المحسنة بالأصباغ. وكان " سيف " في هذا العام واحداً من الهاربين. ولكن ليس بمفرده هذه المرة؛ فقد أصرت " أم العيال " على مرافقته هذا العام خاصة وأنه قد وعدها بهذه الرحلة منذ أول يوم دخل فيه " القفص الذهبي ". لم يكن "سيف " كعادته في تلك الليلة، فقد كان منزوياً داخل نفسه وغير راغب في الزج " بزوجته" وسط هذه الأمواج البشرية نصف الواعية، لذا فقد اتجه إلى إحدى الحدائق العامة.. وأخذ ركناً هادئاً وجلس مع زوجته يتأملان هذا المكان ويستعيدان الكثير من الذكريات فوق الكثبان الرملية وبين شجيرات النخل هناك في بلادهم.. بلا مقدمات فوجئ بثلاثة "مخمورين" وقد شهر أحدهم " مسدساً " وأمر " سيف " وزوجته بالوقوف وإخراج ما بحوزتهم من نقود.. حاول سيف أن يستجمع قواه ويتفهم الموقف مستعيناً بمواقفه العديدة في رحلاته مع زملائه وقال:

ماذا تريدون ؟.. رد أحدهم بلغه غير مفهومة..

طلب سيف ممن يتكلم الإنجليزية أن يترجم له ما قال زميله..

– إنه يأمرك بأن تضع كل ما معك من نقود وكذلك " ذهب " زوجتك تحت قدمه بأسرع وقت وإلا ..

– وإلا ماذا؟ سوف أحضر لكم البوليس. أنتم أوباش.. مجرمون.

أدركت " منيرة " ما يدور من حوار بين هذه الوحوش البشرية وزوجها فأخذت بالبكاء والعويل بصوت مرتفع.. تقدم أحدهم ووضع يده على فمها واحتضنها بقوة.. لم يستطع تحمل هذا المشهد، فحاول أن يمسك بالرجل.. إلا أن ذاك الحائط الأسود المتحرك الذي لم يشارك بالحوار تقدم منه ووضع " المسدس " على رأسه وأمره بعدم الحركة أو الكلام وإلا فقد حياته، وأخذه بالصراخ..

– يا سيف يا سيف تحرك يا سيف.. أين الرجولة.. يا سيف ولا تدعه ينجس عرضك.. يا سيف .

لم يستطع سيف عمل شيء يذكر، استمرت " منيرة " بالصراخ حتى أغمي عليها، ولم تعد تعي شيئاً مما حصل. لقد كان مشهداً مؤلماً.. مشهداً يقطر دماً، مرارته تحرق العقل والقلب وتشل كل الأوردة.. تحيل كل الزهور إلى أشواك تنهش روحه كما نهش لحم زوجته أولئك الوحوش البشرية..

ما دفعني إلى تذكر هذه الليلة المشئومة في مثل هذا اليوم. وفي مثل هذا المكان ؟ هكذا " صاح " سيف وهو ينظر في " مرآة أمه " المنصوبة في صحن الدار.. منذ زمن طويل – قد يكون قبل ولادته – كانت أمه تمارس هوايتها المفضلة عندما " يصفو لها الجو مع أبو

سيف ".. نعم كانت تحضر " الحناء " المعدة منذ الليلة الماضية وتبدأ في أن تعزف على خصلات شعرها أروع الأناشيد .

لم تكن تحاسب والدي كما تحاسبني منيرة اليوم.. كان يعود من رحلاته التجارية ويذهب.. دون أن تستجوبه أمي ولا تسأله عن نوع الهدايا التي يحملها معه.. أو عن طبيعة الرحلة التي سيقوم بها ووجهتها .

لقد أتيت إلى هنا هرباً من جروح تلك الليلة " الملعونة ". ظننت أن هروبنا من البلد سينسينا دماءنا التي سالت على ورد حدائقه.. ولكن لم أنسَ وهي أيضا لم تنسَ.. لقد انشرخ الحب والكرامة وأضحى زواجنا معرضاً للانهيار.. هكذا شخّصت " منيرة " حياتنا الزوجية بعد مرور سنة على الحادثة المشؤومة.. حاولت كثيراً أن نبدأ من جديد في أن " نشطب " تلك الحادثة من تاريخنا خاصة وأنها لا ذنب لها. كما أنني لم أستطع عمل شيء من أجلها.. دخل في نوبة بكاء عنيف ولم يعد قادراً على الاستمرار في هذا الحوار. جلس أمام المرآة وأخذت الدموع تنهمر من عينيه بغزارة وحرقة، وأخذ يردد نعم وأنا.. نعم وأنا أيضاً ..

لاحظت " زهوة " ذلك الشحوب الواضح على وجهة " منيرة " وغياب روحها المرحة " وقفشاتها " المميزة كلما سمحت الظروف واجتمعا.. لم تكن تخفي الواحدة شيئاً عن الأخرى منذ جمع بينهما الفصل المدرسي في المرحلة المتوسطة وحتى إتمام الدراسة الجامعية

وبعد الزواج استمرت الصداقة. بكل تأكيد منيرة تخفي أمراً خطيراً وراء هذا الذبول المستمر، هكذا قررت " زهوة "، وأخذت تحاول معرفة سر التغيير الكبير الذي طرأ على صديقة عمرها، وعندما تعذر ذلك سألتها سؤالاً مباشراً.. " حالك ما عجبتني من رجعتوا من السفر العام الماضي وشا اللي حصل.. " ؟

– أبداً سحابة صيف وتزول يا زهوة.

– ما أظن.. الغيمة سوداء وآثارها باينة.

حاولت منيرة إخفاء دموعها التي بدأت تتساقط وتبلل وجنتيها وقالت:

– لقد اعتدي علينا مجرمون أثناء وجودنا في.. وسلبوا ما معنا، واعتدوا عليّ، ومن يومها " سيف " ما يطيق يناظر وجهي.. أخذت تبكي بصوت مسموع وواصلت إلى قاهراً يا زهوة آه يا للقهر ما لي ذنب.. وهو كل سنة من أيام زواجنا الأولى يسافر، ويملأ حقائبه بهدايا معروفة العنوان والهدف ..

ويعود خائر القوى، ويقول:

" كنت في رحلة استجمام ".. روائح عديدة تنبعث من ملابسه عندما أعيد ترتيبها بعد " رحلة الاستجمام " هذه، كلها تنطق بألف حكاية وحكاية.. وبرغبته ورضاه.. ورغم هذا لم أغضب، وكنت أدعو له بالهداية والعصمة.. أنا.. أنا .

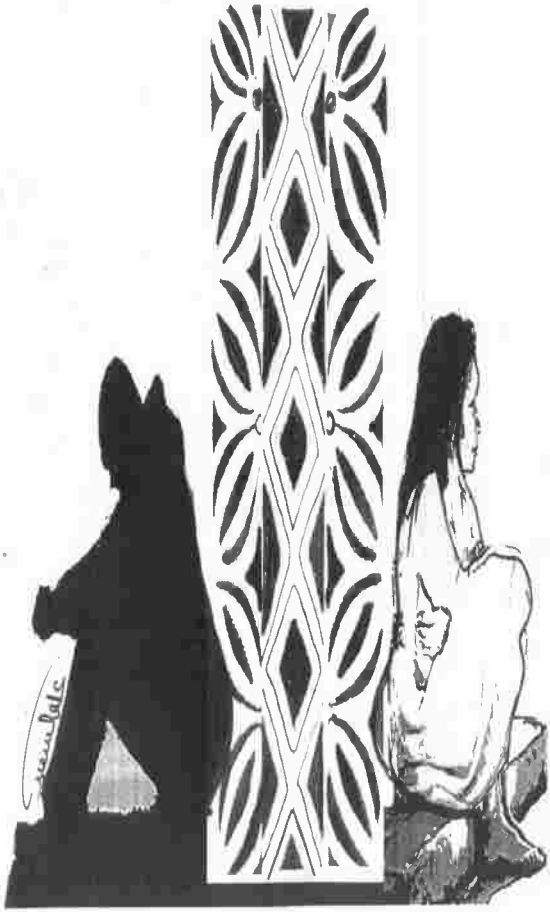

البحث عن أنف!!

تَائِهَاً أنت ! ، ، بين أنت وأنت ! ! ، ، ترى أيهما أنت ؟؟ كيف تحملك قدماك ؟ ، ، وإلى أي جزء من أجزائك ستعبر أنت؟ ، ، هل حددت ساعة الصفر ؟؟ ، ، وأعددت القرار ؟؟ ، ،

عندما تحس بضرورة توحيد أجزائك واكتمال أعضائك في شيء يكون في النهاية أنت. بلا شك ستكون اللحظة التي ترى فيها ذاتك موحدا ، ، بسرعة وبقسوة .

توجّه إلى المرآة واضعاً رأسه في قلبها ، وأخذ يهذي. وبقوة أخذ يردد والزبد يتطاير من فمه ، ،

قل لي بربك : من أنت ؟؟ قل لي بربك : من أنت ؟؟ .

بكل تأكيد لم ينتظر الإجابة ، ، فقد أصيب بغيبوبة مريرة اعتاد على الإصابة بها كلما واجه المرآة بهذا العنف وتلك القسوة!. لم تفاجأ كثيراً هند عندما عثرت على أحمد ممداً عند قدمي المرآة وقد طوق عنقه بيديه ، وبرزت عيناه بشكل يبعث على الألم والشفقة ، ، حاولت الإصلاح من حاله ، وتهدئة نفسه المتعبة ببعض العبارات اليائسة ، ، ،قم يا أحمد (الدنيا ما طارت اللي ما يجي اليوم يجي بكره) فتح إحدى عينيه وتنهد بعمق ، ، حاول الكلام ولكنه أحس بجفاف مدمر يضرب أطنابه بين الحنجرة والبلعوم ، ، فطلب كأسا من الماء بإشارة اعتادت على تلقيها هند عندما يكون في مثل هذه الحالة.

(شرب كأس الماء) ونظر إليها بحنان وقال:

- لقد ارتويت يا هند، ، ولكن من يروي الصحارى المتزايدة في كل شبر ونفس ؟ نظرت إليه هند وفجأة دارت بوجهها عنه لتمسح دمعة فرت من عينيها دون إرادة، ، وقبل أن تغلق باب الغرفة قالت:

- (تأمر بشيء ثاني يا خوي).

لم تنتظر الرد، ، فقد قام أحمد من مكانه وحاول إصلاح بل ترميم شكله، وبدأ يعبث بمؤشر المذياع في محاولة لبدء يوم جديد يتمدد فيه على أنغام الموسيقى، ويمارس الفراغ القاتل الذي يملؤه من الماء. ولكن يديه تسمَّرتا فجأة ليسمع (أمجاد يا عرب أمجاد، ، في بلادنا كرام أسياد، ،).

أغلق المذياع بعنف، ، وأخذ يحملق في المرآة بلا هدف، ، تاهت معالم وجهه، بدأ يبحث عن تضاريس هذا الوجه، فجأة رأى أنفه يتدحرج عند مؤخرة المرآة، ، تاه في إحدى زواياه البعيدة فلينظر أكثر، ،إن تلك التي تتدلى في الأعلى أذنه، نعم، كيف يتم توحيد أعضائه مرة أخرى حتى ولو على صفحات المرآة ؟! أخذ يصرخ ويصرخ حتى راح مرة أخرى في غيبوبته.

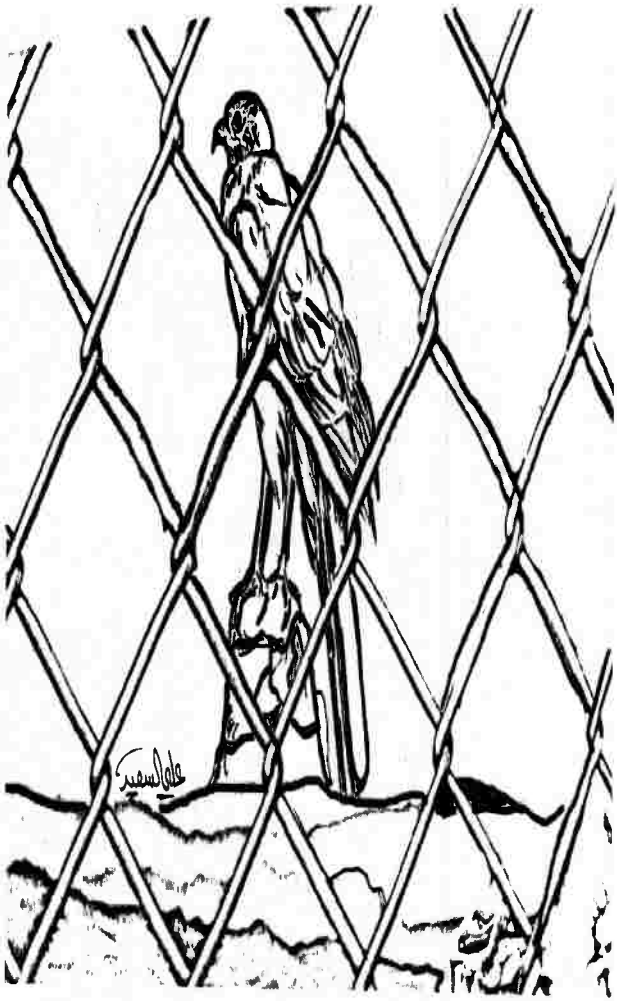

خانة المفعول به

تعصف بنا الرياح..

يتمايل الجميع ذات الشمال وذات اليمين..

تحدق العيون..

ويتثاءب البعض..

يبدأ زمن التيه..

يتباري الجميع في محاولة فهم درجة السواد.. أو الصورة السوداء، هكذا صرخ أحدهم ذات يوم..!!

تساءلوا.. ومن يستطيع التعديل في اللون، وجعل البياض يطغى على السواد؟؟!

ففي أحلامهم نخيل وجنان وجوار وأنهار..

كيف السبيل إلى وصم الواقع لهذه الصفات بدل انتعال الأسى واجترار الظلم ومعاشرة الخوف والجوع؟!.

صوت خافت يصيح من بعيد:

عليكم بالديمقراطية يا قوم.. بحث عنها أحدهم في البقالات، والآخر في الصيدليات،

وثالث ظن أنها نوع من الفاكهة..

صاح أحدهم مؤكداً أنها أقوي مفعولاً من الفياجرا .

استدل الآخرون على طريقها حيث يحل لها الجلوس..

فسيدة الحسن " الديمقراطية " تتواجد في البرلمانات..

ومرة أخري دارت عجلة البحث، ولكن هذه المرة عن البرلمانات احتاج القوم إلي ردح من الزمن.

حتماً تم التزاوج بين هذه الكلمة الأعجمية وموروثهم القبلي والعقائدي..

" الشورى " هي الديمقراطية..

يا للغرابة هذه النتيجة كانت مذهلة لهم؛ فلم يعودا بحاجة إلى البحث عن مكان وجودها، فهي مقيمة في ظهرانيهم تتربع فوق كل انتصاراتهم وتغيب أو تشوه أو تزور في هزائمهم.

يعود الصوت الخافت إلى الظهور مطالباً بتفعيل ما بات مفهوماً لديهم..

رد عليه أحدهم بصوت واضح وجلي، وإن كان الحزن أشبع حروفه ومتى كان الفعل بأيدينا ؟

لم نتعود يا سيدي أن نتعامل مع الفاعل.

منذ زمن ونحن نجيد التمدد في خانة المفعول به .

ثاقب النظر مات

ثاقب النظر عاش ..

ثاقب النظر مات ..

ثاقب النظر كان ..

عرفه في صغره، لم يذكر أنه كان شغوفاً بالقراءة .. ترك مقاعد الدرس بعد الحصول على الشهادة الابتدائية .. إذاً أين اكتسبت عيناه تلك النظرة الصائبة ..؟؟

ارتوى حكمة على الأشياء من أى معين ؟؟ اعتدل الشيخ في جلسته مبدياً على ملامحه القدرة على الإجابة ..

حاول أن يتأكد من إنصات الجميع لما سيقوله عن ثاقب النظر الذي مات .. شاهداً أحد الأطفال مبدياً تذمره من تدني معرفة هؤلاء الصبية بالطرق المثلى التي تقدم بها القهوة خاصة في مثل هذه المناسبات الحزينة ..

لم يسمع أي تعليق تجاه ما قاله عن القهوة وتصرف الصبي .. فقد بدا على الجميع الرغبة في التعرف على جوانب حياة المرحوم، لم تكن تهمهم من قبل، ويعتقدون أن هذا الرجل المتورم داخل عباءته الثمينة وهندامه المعتني بع بدرجة اللمعان يملك الحقيقة التي عن طريقها ملك المال الذي أنجب بحمد الله المرسيدس والفلة.. و.....و....

إذا فحقيقة موتهم أبسط كثيراً .. بدأت النظرات تمطر من كل جانب .. تستعجله بالكشف عن سر تلك النظرة ومن أي معين أستقي المرحوم ما كان يطرح من رأي ؟؟

أخرج من جيبه آله حاسبة وبدأ يقوم بعملية حسابية وقال .. لقد عرفت قبل خمسين عاماً، ولكن لم نتفق خمس مرات.

لماذا ؟ لماذا ؟ بدأت تخرج من كل الأفواه ..

رد رجل بسيط تم إهماله طيلة فترة العزاء في ركن مظلم من ذلك المكان .. السبب بسيط يا سعادة الشيخ .. فأنت تبحث عن رقم عالمي في حجم الكرش وجمع القرش وهو العكس ..

لم يحتمل الشيخ هذه الإهانة .. مما اضطر بعض الموجودين إلى نهر هذا الفقير مذكرينه بدسامة ولائم العزاء. ومثل هذا القول لأصحاب السعادة قد يحرمه منها ..

طلبوا من صاحب السعادة إكمال روايته عن المرحوم وأحد الصبية لقد قال لكم ما لديه فالرحمة لسيده .. لم تكن ابتسامته مرهونة بالقرش ففي زيادته تكمن السعادة .. وعند نقصه تذرف الدموع من قلة قيمة الأرقام لديه تزداد نقاط الالتقاء معه ومن لا فتلفظه النظرة الثاقبة !

وصاحب هذه الرؤية تعتمد نظرته على فئة العملة وقيمتها الشرائية .. وتتصيد عيناه كشوفات الأرصدة، فهي التي تبعث الدفء في جوارحه وتجعله يلح باللقاء تلو اللقاء ..

أما ثاقب النظرة الذي مات فكان ينظر إلي المعدن لا فيما وضع فمه وتتجه عيناه لتحدد نوع درجة أنفاسه قبل أن يقرر هل يتعامل معه أم لا...؟.

الـرأس والشـبـح

أفاق ذات صباح، ، حاول رفع رأسه، ، ولكن دون جدوى، ، أخذ يبحث عن يديه للاستعانة بهما لرفع هذا الرأس العنيد، ، ولكن أين يداه ؟ .

إنهما بحاجة للمساعدة، ، لا تزال عيناه تمارسان الاستمتاع بالظلام الدامس، ، فقد كان يمارس محاولاته بمعزل عنهما، ، لعله كان كارهاً رؤية بقايا ليلة البارحة، ، كانت ليلة حافلة بالكثير من الكلام والفوضى والقليل من الفائدة، ، فقد كان حماس الشباب في أوج عنفوانه خاصة عندما قام الفريق الهولندي بتسجيل الهدف الثاني، فقد رفس ناصر براد الشاي ليحيله إلى أشلاء متطايرة في سماء الغرفة. أما علي فقد أنعم على أهل المنزل بحرمانهم من الراحة بسبب صراخه غير المبرر.

فهو يصرخ على كل اللاعبين، وفي كل الاتجاهات. وعندما يبدأ الجميع في الاستمتاع بفنيات المباراة يصر على إشعال الفتنة بانتقاده وصراخه على تلك الدخلة من اللاعب رقم ٧ .

وهنا تشتعل ملكات الإبداع الكروي لدى أحمد ليدافع عن تصرف اللاعب رقم ٧ ويبدأ بتعداد مهاراته من رفس منقطع النظير تتمتع به رجله اليمنى ومثلها اليسرى وهكذا، ، لم يسلم من هذه الأجواء سوى راشد الذي انزوى في ركن بعيد لا يسمع له صوت

سوى الاستجداء بين الحين والآخر بمنحه دقيقة أو اثنتين لسماع آخر الأخبار من إحدى المحطات، يا لها من ليلة صاخبة. هكذا أصدر حكمه على هذه الليلة وهو يحاول رؤية بقاياها .

فتح عينيه، أخذ يبحث عن يديه اللتين لم يفلح في تحريكهما من قبل، ، ولكن ما هذا ؟ أين يدي ؟ بل أين قدمي ؟ يا إلهي! ! أين بقية أعضائي ؟.

هكذا أخذ يردد وهو يشاهد فجأة أعضاءه في مكان آخر، فصرخ، إنها هناك على السرير. ماذا أتى برأسي إلى هنا ؟ من الذي دحرجه بهذه القسوة ليتسكع بين نفايات تلك الليلة بينما ينعم جسدي بالتمدد على هذا الفراش الوثير؟.

ماذا تقول أيها الرأس النخر ؟ كان من المفترض أن تبحث عن وسيلة تعيدك إلى جسدك المسلوب وليس الحقد عليه لتدثره بالفراش، ، نعم، ، عليّ أن أعود إلى الجسد، هكذا قرر الرأس وهو يتدحرج بين نفايات تلك السهرة، وتساءل بحرقة؟ ولكن كيف أستطيع الوصول إلى الفراش ؟؟ لألتصق مرة أخرى بالرقبة، ، كانت رقبة سميكة، ، لقد حملتني قرون عديدة، ، ولم أعرف قيمتها إلا اليوم، ، لا فضل لها، ، إن الفضل يعود للأكتاف، ، فقد كانا كتفين

عريضين لديهما القدرة على حمل أكثر من رقبة وأكثر من رأس، لم أحس بقيمتهما إلا الآن .

إذاً عليّ أن أفكر بطريقة تعيد هذا الرأس التعيس إلى ذلك الجسد القوي، ولكن!! ببلاهة وقلة حيلة أخذ يسأل: من يعيدني ؟ من يعيدني ؟

لا أحد هنا، ، فهل أجرب ؟ ألا زلت قادراً على الصراخ ؟ أم ترى اللسان ليس من أجزاء الرأس ؟ فهل أجرب ؟ أخذ يصرخ، ، يا أهل المنزل، ، أيها القاطنون هنا، هل من بينكم من يساعد رأسي للعودة إلى بقية جسدي ؟ لا أحد يجيب، ، يسمع صوتاً، ، يطلب النجدة مرة أخرى.

– أنتم يا أهل المنزل، ويفتح باب الغرفة ! يرى شبحاً مخيفاً يقف أمامه، ، يحملق فيه، ، يحاول أن يقذفه بما تصل إليه يداه، ، ولكن هما هاتان اليدان القويتان؟ .

إنه لا يملك سوى رأس ممرغ بأرض الغرفة المليئة بالنفايات المؤذية، وهذا اللسان الذي اكتشف أنه ضمن أجزاء الرأس، ، حملق في القادم بقوة، ، وقال: من أنت ؟ لا يهم، ، فهل تكون من تكون، ، هلا ساعدتني بإعادة رأسي إلى جسدي ؟ همهم الشبح بكلمات

مبهمة، وتناول الرأس بين يديه، ، وعندما وضعه على مسافة قريبة من الجسد قال له:

" أنا أستطيع إعادتك إلى مكانك، ولكن لدي شروط كثيرة، ، عليك قبولها إن كنت تريد أن تنعم بالتصاقك بتلك الرقبة فقط " .

ماذا تقول ؟ هكذا نطق الرأس، ،

فأعاده ذلك الشبح بقسوة إلى الأرض وقال، ،

عليك في البداية نسيان العديد من الكلمات، ، إن كنت تريد العودة للجسد أيها الرأس التعيس، ،

تمادى ذلك الشبح في إهانة الرأس لقياس مدى التزامه بالدور المطلوب منه عند عودته إلى الجسد، ومال نحو الرأس بغرور، ، وأخذ يبصق عليه!!، ،

دبت الروح في أعضاء الجسد المتناثرة على السرير لتتحرك القدم، وتسدد ركلة قوية تقذف بالشبح خارج الغرفة، ،

لتجد اليدان أن الوقت قد حان لاستعادة فعاليتهما لتمتد إحداهما وتمسح ما علق على الجبين من آثار مشينة نتيجة لصفاقة هذا الشبح اللعين .

عـمـي نهـاب

قذف بنفسه إلى الشارع، أخذ يتدحرج عبر الأزقة والممرات، لقد حفظ أدق تفاصيل الحي،، هذا منزل الكايد الكبير،، وهذا منزل زوجته الثانية، تميزت من بين زوجاته الأربع بقدرتها الفائقة على إسكات الكايد الكبير؛ في الوقت الذي يقف جميع أهل الحارة عاجزين عن كبح جماح نزواته الكثيرة والمتنوعة.

إلا أن أم العيون العسلي قادرة على إسكاته بزخات متواصلة من صواريخ لحظيها الجريئين ينكمش بعدها ويتكور في عباءته العتيقة ويتمتم،، حسابك بعدين يا بنت،،.

الكثير من الصور تتزاحم في رأس مشعل، وقف أمام بيت طيني متهالك أخذ نفساً عميقاً من سيجارته بعد أن رمى بباقي رغيفه الصباحي في صفيحة عتيقة، ألقيت بإهمال أمام ذلك الباب الموصد أبداً. كل يوم يصل إلى هذه النقطة ويقف ليقرر،، هنا ينتهي غذاء البطن ويبدأ غذاء الروح،، يا لها من غزال فاتنة تلك القاطنة في هذا المنزل الطيني الخرب،، بينما تعيش عقارب عديدة في قصور الحارة تحت رعاية وعناية الكايد الكبير، أما هذه المسكينة فقد طردت مثله من جنة الكايد، بل ولم تسلم هي وأمها وأبوها من شروره بين الحين والآخر، أسند ظهره على عمود الإنارة الذي وقف شامخاً في الحارة كشاهد إثبات على وجود أحياء في الحارة وقال:

" ولكن ما ذنبها " ؟

ليست مثلي، بل وأنا ما ذنبي ؟ إنني ابن أخيه. هكذا تؤكد أمي وكثيرون من أهل الحارة، ولكن لوثت اسمه في التراب، لا لم أتخطَّ على أحد، لم أضر أحدا، هي لحظة ضعف أردت أن أنسى همومي، ، هكذا قال لي زميلي أحمد عند عودته صباح كل سبت مشرقاً بعد إجازة حافلة، أردت أن أضحك ولو مرة في حياتي، وصفه لي: ما عليك إلا أن تدخل إلى المحل وتشير إلى زجاجة بيضاء من زجاجات العطور. سيبتسم صاحب المحل ويقوم بوضعها في كيس ويستعجلك في دفع النقود مع عدد من الالتفاتات هنا وهناك، خذ اللفافة يا مشعل، واذهب إلى البيت، وضع قليلاً منها في كأس، أضف عليه الماء واشرب عصير السعادة والفرح. لكني بعد أن شربت لم أفرح، بكيت بكاء مريراً، وأخذت أردد ما شاهدت وما حفظت من سوءات ونزوات الكايد الكبير.

من فوق السطح تجمع أهل الحارة، ، قال أحدهم: مشعل انجن! رد آخر: مسكين، كان يجب أن ينجن منذ مدة. ألم يأخذ عمه كل أمواله وزوجات أبيه الثلاث ويحرمه من الميراث بدعوى أن أخيه لا ينجب ؟.

سأل أمه بحرقة تلك الليلة: هل أنا ثمرة خطيئة يا أماه ؟ ألح في السؤال، حضنته بحنان متفجر وأخذت حشرجة صدرها تزداد وصرخت أمام الجميع: لا يا ولدي، فأنت ابن محمد الكايد صاحب

الأرض وثمرة زواج شرعي والله يعلم، ولكن لم نـرزق بغـيرك طيلـة عشرين عاماً من زواجنا مما دفع والدك – رحمه الله – في آخر أيامه إلى الزواج بحثاً عن الإنجاب، فكان يقول: يا أم مشعل أموالي كثيرة وتكفي مشعل وعشرة معه.

تزوج ثلاث مرات في ثلاثة أعـوام متواليـة، مـات بعـدها وكـان عمك نهاب أحد المسئولين عن أعمال والدك بل أهمهم، كان يا ولدي يكاد يقبل يدي عندما يحضر لاطـلاع والـدك علـى الـدفاتر في أيامـه الأخيرة.

استطاع نهاب أن يلعب بعقول زوجات والدك بعد وفاتـه تحـت ذريعـة حمايـة أمـوالهن مـني ومنـك، فتـزوجهن وسـاعده صـبرنا وسكوتنا على ابتلاع كل الأموال، لم تكمل أم مشعل روايتهـا حتـى صاح أحد أبناء نهاب: مشعل سكران يا أهل الحارة، شارب كلونيـا كانت كلمة السر التي زلزلت الحارة، زاد هياج مشعل وقذف عمـه بأفظع الأوصاف، تدخلت الشرطة ومن يومها أصبح موصوماً منبـوذاً بعد فصله من عمله إلى أن انتشله خاله بتشغيله في أحد محلاته.

حـاول إبعـاد هـذه الـصورة مـن ذاكرتـه، فعليـه أن يـذهب إلى المحل، فقد تأخر كثيراً، لم يذهب إلى مكتبه كما اعتاد، فقد وجـد نفسه أمام مدير مكتب المدير العام طالبـاً مقابلتـه بإلحـاح، لم يكـن سراً بأنه ابن أخت المدير العام، إلا أنـه لم يـسبق أن طلـب مقابلتـه

بمثل هذه الصورة، سمح له بالمقابلة بعد أن ألقى التحية قال: " إلى متى سأبقى على هذه الحال أعمل أجيراً لديك، بينما أموالي يبعثرها عمي نهاب لخدمة أغراضه ونزواته ورغبات أبنائه وبناته وزوجاته ؟ "، رد المدير العام دون أن يرفع عينيه عن ورقة كان منهمكاً في قراءتها عند دخول مشعل:

ولكن أنت يا مشعل بتصرفاتك غير المسئولة ساعدت عمك نهاب على سلب حقوقك.

غلطة واحدة يا خالي هل تبرر ضياع كل شيء ؟.

أخذت العقاب عليه وأنت تعرف ذلك بينما غلطات العم نهاب عديدة ومشاهدة ولم يأخذ عقابه أهذا عدل يا خال ؟.

يا مشعل، ، يا مشعل لا تنتظر من عمك أن يهديك حقوقك، هذا كلام في القصص والروايات، أما الواقع فإذا لم يكن لديك سلاح لانتزاع حقك لا تنتظر من أحد أن يهديك إياه.

لدي سلاح يا خال، ولكن أريد مساعدتك، ،

نظر إلى مشعل نظرة فاحصة وكأنه يراه لأول مرة، ترك الأوراق التي بيده وقام من مكتبه واتجه إلى مشعل واحتضنه بقوة وقال:

أكبر فيك إرادة الحياة وأنا معك في استعادة حقك في الحياة.

صـــدى

أتوحد في ذاتي.. أنفرد معها.. أحاول أن أحاورها.. أخلق موضوعاً (ما).. أجدني قادراً على الحديث.. بل والمجادلة.. وأحياناً الإقناع.

ولكن عند محاولة طرح فكرة إلى الخارج مهما كانت تافهة، تبدأ الكلمات تمارس انسحاباً منظماً من لساني.. وتبدأ الصور بالاهتزاز في رأسي.. ويبدأ العرق يتصبب من أجزاء جسمي.

ذات يوم.. عندما كنت أشاهد التلفزيون مع (الشلة) أخذ كل واحد منهم يصدر تعليقاً على بعض المشاهد المثيرة.

– المعطي الله..

– الله لنا..

– يا غصن بان..

أردت مجاراتهم.. تُهت في داخلي.. أذكر أنني بدأت أتحسس المكان الذي أجلس فيه أكثر من مرة.. عندما ارتطمت يدي بمكان مبلل.. اتهمت يوسف بأنه من فرط حماسه سكب الشاي على السجادة بدل أن يسكبه في جوفه! أعتقد أن الجميع اقتنعوا.. لا لم يقتنعوا.. سمعتهم يضحكون وأنا أهم بالخروج.. بل قد رأى أحدهم ملابسي وقد أصابها الشاي.

أعود إلى المنزل.. أبحث هذه المسألة.. أحاول أن أجد لها حلاً..

– نعم هم شباب طائشون، لذا يقومون بإطلاق مثل هذه التعليقات، أما أنا فلأني أعقل من هذا..

– بل قل إنك أجبن من أن تعبر عن رأي، ولكن هذا ليس رأياً، إنها غريزة مكبوتة تعبر عن نفسها بسطحية تافهة..

– ولكن في النهاية تعبر.. أما أنت..

– أنا أكبر من هذا.. لو وجدت موضوعاً يستحق المشاركة، فسوف أشارك..

أحاول أن أعقد هدنة مؤقتة كي أستطيع أن أنام، نعم يجب أن أكون مغروساً على مكتبي الساعة السابعة والنصف صباحاً.. بعد هذا الموعد بدقائق تحصل الكارثة.. إنه يقوم بعدنا يومياً كقطيع غنم ورثه عن والده! لا أدري هل يتخيل أن عددنا سيتكاثر يوماً بعد آخر، رغم أنه لا مجال للتناسل بين موظفين في مكتب...

ولكن عدم اهتمام المدير المحترم بالإنتاج بدرجة الدقة والحرص على ممارسة العدِّ يجعل هذه الفكرة قد تكون ضمن تفكيره المتوقف منذ ألف عام. اكتمل العدد.. ولكن غاب راعي الغنم.. أخذت المواضيع تطرح بحرية، فسعادته ليست موجودة اليوم.. لذا فالحوارات تكون أكثر حرارة، وبدأت المواضيع تنساب مع قهوة الصباح.

لقد كانت الندوة التلفزيونية التي بثها التلفزيون مساء أمس موفقة إلى حد كبير، فمثل هذا الموضوع يهم الناس وحتماً يحرصون على متابعته.

أراد سمير أن يغري حسين بالحديث لعلمه بأنه شغوف بمثل هذه المواضيع.. ولكن رد حسين باقتضاب:

لم أكن متابعاً جيداً لهذه الندوة لانشغالي بالاستماع إلى تقارير إخبارية عبر قنوات أخرى.

أردت أن أتحدث.. أن أشارك.. لقد شاهدت الندوة.. وكونت رأياً حيالها، وفي نفس الوقت استمعت إلى التقارير الإخبارية، ولدي ما يمكن أن أقوله تجاه ما سمعت، كما أنها فرصة لأن أدلي بدلوي.. فالموضوع حيوي لا يخلو من المصداقية.

أردت أن أتحدث، تنحنحت.. أخذت أسعل.. طال السعال.. وبدأت الكلمات تخرج من حلقي بعد أن جف.. قال أحدهم:

(مالك تنبح يا خالد.. إني أعرف طبيباً ماهراً.. تعالى ذهب إليه).

أيد الباقون هذا الرأي، التقط آخر سماعة التلفون ليتأكد من وجود الطبيب.

أخذت أحملق في وجوههم وكأني أراها للمرة الأولى.. صرخت:

لا أريد طبيباً.. أريد أن أذهب إلى المنزل!

لم أنتظر الإجابة.. أطلقت قدمي للريح والدموع تنساب بغزارة من عيني.. ركبت السيارة.. كدت أرتطم ببوابة المبنى.. دخلت إلى المنزل.. كان خالياً فساكنوه ما بين نائم في المنزل أو نائم على مكتبه في العمل.. دخلت غرفتي.. أطفأت الأنوار.. تجردت من ملابسي.. تخلصت منها واحدة تلو الآخر.. أصرخ بأعلى صوتي.. وألقي بكلمات غير مرتبة أشبه بوابل رصاص من بندقية جندي مستجد.. تناثرت صرخاتي في أرجاء المكان.. أضأت نور الغرفة.. رأيت وجهي بالمرآة.. إنه أنا.. أنا ذلك الذي ملأ المكان ضجيجاً.. إن صوتي سليم.. نعم أستطيع الكلام.. فلأجرب صوتي (في النور).. لقد كان قوياً والمكان مظلم كظلمة أيام حياتي.. أحاول.. لا صوت يظهر.. أعاود المحاولة.. أفشل مرة أخرى.. أعود إلى المرآة..

أنت ثانية يا أبي.. اطمئن لن أتحدث بوجود الرجال.. لن أجلس معهم.. سوف أعود لنفس المكان الذي عودتني على الجلوس فيه.. نعم سأجلس في ذيل المجلس..

نعم يا والدي.. سوف أصمت نعم سأظل جالساً بجانب النعال.. وسأكتفي بصدى الصمت.

الهرم المقلـوب

للمدينة نكهة تختلف عن الريف.. استنتاج سخيف لم احتج إلى الكثير من الوقت لفهمه والتمشي بموجبه كما يرد في الأوامر الإدارية الرسمية عادة.

ولعل من مقومات وركائز تلك النكهة التنكر لبعض العادات ونزع القدسية عنها وجعلها في العراء تقاسي موجات البرد النجدي القارص.. المدينة تقول في مقدمة دستورها: إن المقيم هنا يجب أن يطوع حياته الخاصة لخدمة عمله وليس العكس.. ماذا يعني هذا ؟!

ما أقسى هذه المدينة.. أيمكن ان يتحول الفرد منا إلى آلة تعمل وتعمل، وعندما ترتاح فللصيانة فقط ؟.. فهذا ما فجر رأس صاحبي وجعله ينتهك حرمات ودستور المدينة ويعزف مقطوعته الغجرية على باب منزلي مستخدماً كل ما لديه من وسائل؛ فيده اليمنى تسمرت على (جرس الباب) والأخرى تتفنن بالقرع على الباب.. كان الوقت متأخراً..

غداً عمل.. كل من في المنزل قد آوى إلى فراشه.. أفاق الجميع، أخذوا يتسابقون على الباب (الله يجيب العواقب سليمة.. الله يستر.. عسى خير) هكذا كانت تردد زوجتي..

أما أنا فأخذت أردد آداب الزيارة وأنا في سريري وضرورة الاتصال المسبق عبر وسيلة اتصال وما أكثرها قبل اقتحام بيوت

الناس في مثل هذا الوقت. لم يفتني وأنا أتلو تلك البيانات أن أوجه الاتهام إلى أحد الأبناء وأؤكد أن الطارق أحد رفاقه..

لم أكمل ما نويت قوله حتى سمعت ابني يرحب بالقادم: يا هلا أبو سليمان.. سلامات اقلط.. عسى ما شر.. الوالد موجود ؟.

تفضل.. لم يكن هناك ترابط منطقي بين ما تسمعه أذناي.. ما هذا الاضطراب الواضح في كلمات ابني ؟.

تركت السرير.. ارتديت ملابسي.. قبل خروجي من الغرفة وإذا بإبني يطرق الباب، فتحت الباب مباشرة.. كان شاحباً زائغ البصر.. سألته عن السبب عبر نظرة سددتها إلى عينيه.. أجاب على الفور: أبو سليمان يبه منهار.. يقول:

يبيك.. وش السالفة ؟

ما ادري رح شفه بالمجلس..

بسرعة متناهية كنت أمام أبو سليمان.

عينان جاحظتان ووجه أصفر.. يداه ترتعشان والعرق يتصبب من جبينه.. الشعر الأبيض أخذ يحتل مناطق كبيرة من ذقنه ورأسه.. منذ أكثر من عشرة أعوام لم أر أبو سليمان.. كان من أعز أصدقائي، ولكن فجأة تعارضت وتضادت نظرتنا للحياة.. كان نموذجياً، مثالياً، يقرأ النص، يحفظه، يطبقه بحرفية ودقة متناهية.

حاولت أن أسلم عليه وأعبر عن شوقي لرؤيته رغم كل ما حصل من اتهامات وجهها لي في أيام غابرة.. ورغم اقتحامه منزلي في مثل هذه الساعة المتأخرة وبهذه الطريقة.. حدق في وجهي.. وأخذت عيناه تتنافسان في كمية الدموع المنهمرة.. حاولت أن أهدئ من روعه وأساله عن السبب،.

كررت المحاولة ولكن عندما يريد أن يتكلم يحس بفقده للأحرف والجمل رغم تواجدها في فمه.. وعندما ألححت عليه بالسؤال مذكراً إياه باختيار الوقت غير المناسب للزيارة وارتباطي بعمل غداً قال:

يا صديقي.. ما أبعدني عنك طيلة هذه الفترة هو اعتقادي بصحة وضع الهرم، لكوني يومها عجزت عن استيعاب صورتي عندما استبدل رأسي بقدمي واعتقدت حينها أنك مأجور أو مجنون.

كان تصنيفاً قاصراً ومستفزاً.. مأجوراً أو مجنوناً ؟ كيف يتوهم هذا المثقل بالأوهام عني.. يدخل منزلي وبهذه الطريقة ويتهمني بهذه التهم بعد غياب دام أكثر من عشرة أعوام؟

ترى ماذا أعمل به ؟!

لم يدعني أن أضع بنود خطتي فبادرني: يا أخي.. اليوم.. وفي هذه اللحظة بالتحديد أقر وأعترف بأن الهرم مقلوب.. وأعقب هذا

الاعتراف بالعديد من الآهات.. فانهمرت الدموع ولم تتوقف من مقلتي أبو سليمان..

ولمعرفتي المتجذرة بهذه الشخصية، فإني أستطيع أن أقيم مثل هذا الاعتراف وأفهم الطريقة التي اقتحم بها بيتي، ولكن السؤال الدائر الحائر الملح في طلب الإجابة. ترى ما هو الموقف الذي جعل أبو سليمان يصل إلى هذه الحالة ؟..

لم أحاول أن أوجه سهامي إليه في مثل هذه اللحظة، وتركته يكمل ما قد بدأ.. وهذا ما دعاه إلى أن يكفكف دموعه وأن يستعيد مهارات صوته عبر العديد من التجارب المصحوبة بالكحة المفتعلة..

وعندما وجد أن ردود الفعل لدي قد تبلدت بانتظار ذاك الذي اقنع أبو سليمان صاحب النظرة التقليدية والمصدق بكل ما يحدث أمامه.. الكاره للتشكيك أو التساؤل أو استخدام أي وسيلة للتأكد مما هو مطروح.. فقد كان يؤمن بعكس ذلك.. وأن مثل هذه الشكوك أمراض من صنع الجن أو السحر.. بعد قناعته بغياب كل ما كان يفرقنا، تنهد..

وقال: يا صديقي عملت ربع قرن من عمري بإخلاص وتفان.. ورغم هذا لم أجد ثمن ما يجفف عرقي.. وذات يوم أطللت على

مسيرتي الأسرية إطلالة متأمل.. ووجدت أن هناك احتياج واضح إلى زوجة ثانية لكي لا أقع في مستنقع الحرام..

وقد كان، وتم بحمد الله زواجي الثاني في ليلة ربيعية جلجل فيها الفرح بكل معانيه، وبعد ثلاثة أشهر من زواجي تم حصولي على أول ترقية منذ عملي في هذه المؤسسة قبل عشرين عاماً، فرحت كثيراً وأقمت وليمة كبيرة.. دعوت لها كبار المسئولين. وبطبيعة الحال قامت زوجتي الثانية بدعوة كبار المسئولات وهن حرم كبار المسئولين.

بعد هذه الحفلة بأيام تم تسليمي قرار ترقيتي الجديدة.. ابتسم أبو سليمان بشكل غريب وأخذ يرقص شفتيه بطريقة جعلتني أتساءل عن سر هذه الترقية.. لم يمهلني كثيراً..

بل أردف قائلاً: وبعدها بأسابيع أصبحت مدير الإدارة.. وهذا ما جعلني أفقد عقلي وأبحث عنه لدى أصدقائي مثلك.. لقد قدمت خلال العشرين عاماً الماضية أضعاف ما قدمته خلال الأشهر الثلاثة..

ورغم هذا يمكن أن تكون ثمار يوم تعادل محصول عام؟ في أي ميزان وأي عرف وأي دستور هذا يا صديقي!! ما فجر عقلي وجعلني أعزف الألحان على بابك عندما تعرف السبب الحقيقي لانهمار الترقيات!! لقد عرفت بأن زوجتي الجديدة ابنة أخت

سعادة المدير العام من الرضاعة.. وهذا سر اختصار السنة بيوم وهذا تحديدا ما لم أكن أصدقه في اتهاماتك المتواصلة.. وتحليلاتك الانتهازية.. وما دفعني إلى اقتحام منزلك في هذه اللحظة هو اعترافي المعلن بصحة مقولتك وغباء نموذجيتي.. نعم وألف نعم.. الهرم مقلوب.

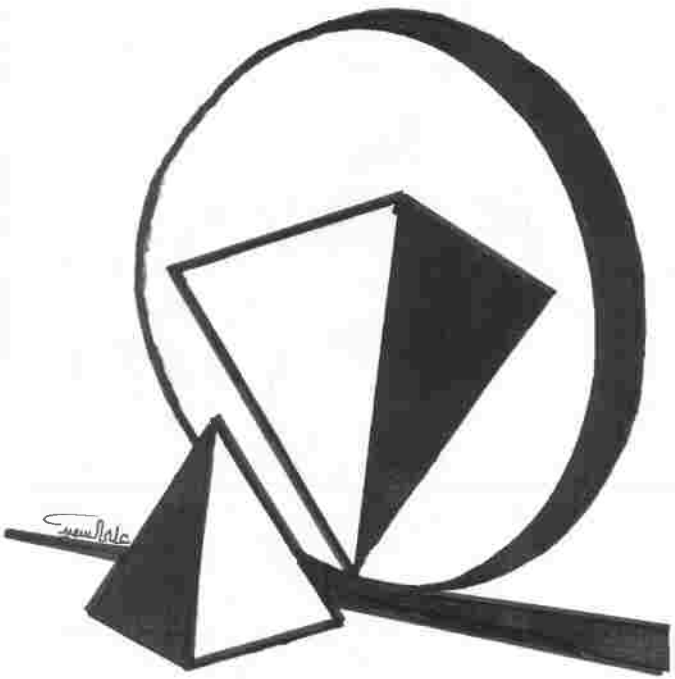

دجاجة تتني

(زحمة يا دنيا زحمة) هكذا كانت تردد بلغتها وعلى طريقتها. تسألني عن لغتها وهل تختلف عن لغتنا ؟ أرد بسرعة فائقة لأقول: نعم، وبقوة كقوة الاختلاف؛ فقد كانت النغمة الصوتية لما تطلقه حنجرتها.. قا.. قا.. قا..

لا تستغرب أنها دجاجة وفي حظيرة مزدحمة بأشقائها وشقيقاتها. في مثل هذا المكان يتجاور الحفيد مع الجد والوليد مع التليد. كله معد للذبح. لم تكن هذه المجموعة من الدجاج تعي مصيرها المحتوم..

وحدها هذه الدجاجة نمت لديها قنوات استشعارية.. ذات يوم فرت من بين يدي سجانها واعتلت المبنى، لا تعرف مكوناته ولا أدواره ولا مكاتبه، كل ما تعرفه هو الحظيرة التي تقيم فيها مع باقي أفراد عائلتها من الدجاج.

استوقفها نحيب مفجع.. لم يكن الصوت غريبا عنها.. سمعته أكثر من مرة، ولكن لم يكن بهذه النعومة. كان حادا آمرا متجبرا. وفي هذه المرة متوسلا. نعم إنه هو مدير المزرعة.. (أعطني فرخ نسر.. وخذ كل دجاج الأرض) أخذ يرددها عدة مرات وبصور من المرارة الملونة.. هنا وهنا فقط اكتشفت رخصها وهوانها على الناس.. فرخ نسر.. نظير كل دجاج الأرض.

ما أتفهنا نحن عالم الدجاج، تصرخ في أحيان كثيرة وسط الحظيرة كلما استشعرت تفاهتها لدى مالكها. لم يطل بها المقام في هذه الحظيرة، ذبحت كغيرها، وبيعت ضمن أخوات لها.

قد تمددن في ذاك المزاد ولكن حصل لها ما لم يحصل في عالم الدجاج..

كلهن تموت ذاكرتهن بعد قطع الرأس إلا هي. فلم يكن مركز المعلومات لديها في الرأس، بل كان مختفيا في جسدها، ويتنقل، ويختفي كما هي حكاية سلاح الدمار الشامل ولم تطل الرحلة كثيرا لتصل إلى ثلاجة مختلفة. ومصدر ذلك الاختلاف هو خلو الثلاجة من أي أخ أو صديق أو شقيق، كانت لوحدها..

لم تكن معاني ومفردات السجن غائبة عنها، فقد عاشتها في الحظيرة، وبكت من ظلم السجان كثيرا، ولكن هذه المرة هي بمفردها، نعم إنه السجن الانفرادي. هكذا صنفت الدجاجة وضعها في هذه الثلاجة..

وهنا أصبح من الواجب عليها أن تحاول التقاط بعض ما يدور خلف هذا العالم.. وفي كل لحظة عجز تندب حظها العاثر الذي جعل غيرها من أمة الدجاج لا تحس بما حولها وهي عائشة وجعل

منها دجاجة تدرك ما في رأسها حتى بعد قطعه أنصتت.. كمحاولة أخيرة للتعرف على ما يدور خارج هذا السجن الانفرادي..

ماذا.. تني..

ماذا تعني هذه الكلمة ؟

لقد سمعتها طويلا..

تم الإفراج عني عدة مرات، ووضعي في ماء، وسلخ جلدي وعندها كنت أحمد الله على أن معاناتي أوشكت على الانتهاء لأعود ثانية إلى الثلاجة ويتم تجميدي وخلف هذا كله كلمة من ثلاثة أحرف.. ت.. ن.. ي.. تني..

إذا هذا هو السيد الذي كلف بإنهائي عبر معدته وأمعائها وليس لدي أي اعتراض على هذه النهاية، ولكن ما يؤلمني هو هذا التعذيب المتكرر تم إخراجي من الثلاجة لكون تني أمر بإعدادي غداء له وبعد سلخي بالماء الحار أعدت إلى الزنزانة مرة أخرى لكون السيد تني سيتناول غداءه في الخارج أخذت أشتاق للحظة الغروب عل تني يطلبني على العشاء وتكرر المشهد لعشاء مفاجئ آخر خارج زنزانتي..

وكان يوما مشهودا عندما قرر السيد أن يولم لأصدقائه، حيث جلب العديد من حفيداتي اللاتي فوجئن لكوني لم تفرمني أمعاء إنسان بعد، .. وجعلوني أول المهضومين في تلك الوليمة.

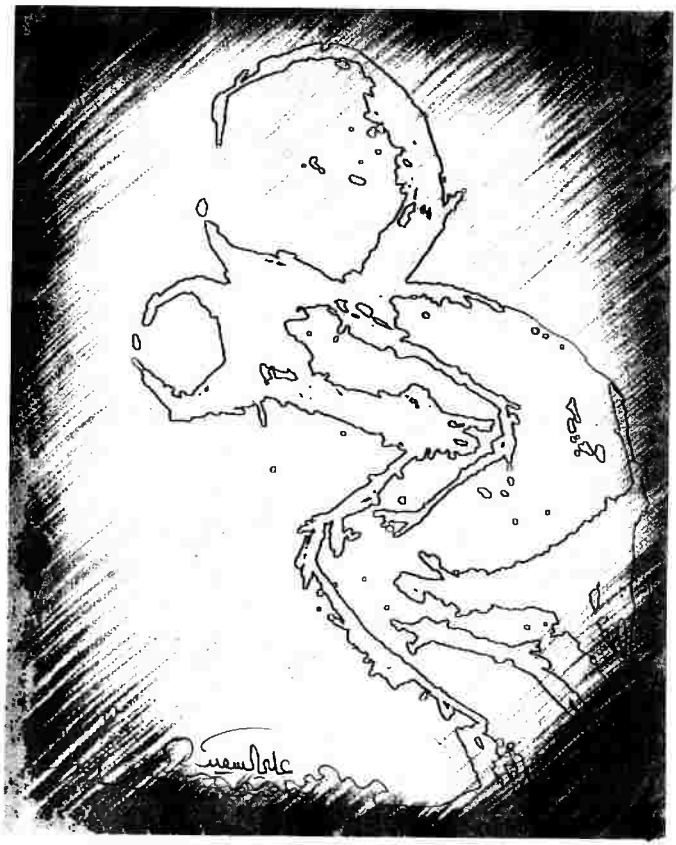

بنت الملجـــأ

تتوه، تحلم، تتوهم، ترجو هذه الصغيرة الخروج من هذا الملجأ التعيس .. تتساءل بحرارة عن أسباب إيداعها في هذا المكان .. ووالداها لازالا على قيد الحياة .. ولديهما القدرة المادية على إعالتها هى وأخواتها ..إذاً لماذا هي هنا ؟؟

سؤال بديهي لكن الإجابة عنه استغرقت كل وقتها بلا جدوى .. لم تصل إلى السن الذي تخطئ فيه، فتودع في مكان كهذا ؟؟ لازالت صغيرة.. ترى عندما تكبر هل سترتكب أخطاء تعيدها إلي الملجأ أو السجن ؟

ربما.. وما هي تلك الأخطاء ؟؟ ثم لماذا تقبع هنا بلا خطاء ؟؟ هل ستتمكن من أن تعيش هناك حيث البيت والزوج والأسرة والاحترام الاجتماعي وهي مليئة بالأخطاء .. ربما..ذات يوم وقفت المديرة على باب العنبر رقم (٥) .. وأخذت تنادي :

– الآنسة صباح عبد الرحمن

– نعم يا سعادة المديرة

– تفضلي معي

تذهب صباح مطأطئة الرأس تتحسس أخطاءها وأيهما وصل إلي مسمع المديرة، فآتت تطلبها، قد تكون تلك الحرباء المسماة نوال هي التي فتنت عليها لدى المديرة عندما تحرشتا سوياً بالممرض وحاولت

نوال فتش "سوأته" .. حاولت صباح استكشاف ما تخفيه المديرة خلف ابتسامتها المصطنعة وهما يتجاوزان الممر الأخير المؤدي إلى غرفة الإدارة .. اتسعت ابتسامة المديرة وهي تقول:

– هناك من ينتظرك يا صباح في مكتبي

– من يا أستاذة

– والدك السيد عبد الرحمن ومعه رجل من أقربائك يسمى احمد يوسف

– وماذا يريدان ؟؟

– لا أدري ولكن ..

– ولكن ماذا يا أستاذة

– أعتقد أن مرافق والدك يريد أن...

– أن ماذا ؟؟ .. أرجوك لقد أحرقت ما تبقى لدي من أعصاب

– أعتقد أنه طلب يدك .. ووالدك قال له أمامي إنها أجمل أخواتها الموجودات في الملجأ.

هنا توقفت أسئلة صباح وتاهت داخل أعماقها تتساءل للمرة الأولي عن أحلامها كيف تخيلت حياتها القادمة .. حول زوج المستقبل .. شكله، طوله، سنه، عمله، هوايته، أهله ؟؟ لم يسبق

لها أن فكرت فى هذا، ولكن كل ما يجب أن تفكر فيه الآن كيف تخرج من هذا المكان؟؟؟

– ماذا يعني سكوتك يا صباح ؟ هكذا سألت المديرة بشكل حاد ومباشر ولم تتأخر صباح في الإجابة حيث قالت بقناعة ورضا:

– يعني أن رفيق والدي هو الزوج المنتظر وسأقبل به أياً كان. المهم أخرج من هنا.. واستطردت بحدة ولكن أنا هنا لماذا يا أستاذة؟؟

لم تعر المديرة سؤالاً كهذا أي اهتمام، واتجهت مباشرة إلي محاولة إطلاع صباح عل أهم ما اكتشفته من خلال نظرة عابرة للسيد أحمد يوسف ..

– أنه يكبرك بثلاثين سنة على الأقل

– لا يهم سنه .. المهم أخرج من هنا ..

أكملت صباح جملتها والمديرة تهم بفتح باب مكتبها .. وهنا بدأ قلبها يخفق بشدة .. على يد هذا الرجل يتم خروجها من هذا المكان.. الذي لازالت تجهل أسباب وجودها فيه .. ألقت التحية وجلست على استحياء في المقعد البعيد .. بينما أخذت المديرة مكانها خلف المكتب .

نظرت خلسة إلى ذلك الرجل الجالس بجوار والدها .. تبدو على ملامحه الطيبة. يحاول أن يرسم ابتسامة صافية عندما ينظر إليها هو الآخر .. قطعت المديرة تلك النظرات المتلصصة بقولها:

– هذه هي صباح يا سيد عبد الرحمن ..أخذ والدها نفسا عميقا من سيجارته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة كما هي أحلامه وطموحاته.. وقال:

– نعم يا سيادة المديرة .. هذه صباح لقد تغيرت بعد زيارتي الأخيرة منذ عام.. أصبحت أنثى بمعنى الكلمة. ووجه كلامه للسيد أحمد بقوله:

– " ولّا لأ يا بو يوسف " .. رد الأخر باستحياء واضح وقال ..

– بلى يا عمي إنها مكتملة الأنوثة وذات جمال خلاب..

– إذاً على بركة الله .. ونظر إلى المديرة سائلاً ..

– ما هي إجراءات إخراج صباح من هنا ؟؟

بسرعة وتلقائية قالت المديرة ..

– لا شيء يا سيد عبد الرحمن سوى إقرار من قبلك بأخذك لها ومسئوليتك التامة تجاهها.. فلا يوجد عليها أي جريمة سوى أن الملجأ تدخل لتحمل مسؤولية تربيتها هي وأخوتها عندما تخليت عن ذلك بعد طلاقك من والدتهم.

رد السيد عبد الرحمن بحدة :

– لم يكن ذنبي .. وعلى أي حال عفا الله عما سلف .. هاتي ما لديك من أوراق لكي أمضيها..

خرج الثلاثة من الملجأ وكانت صباح تلقي نظراتها على نوافذ الملجأ علّها تلمح إحدى أخواتها ولكن دون جدوى .

وفي المنزل أقيم حفل صغير، وزفت خلاله إلي السيد أحمد يوسف. وكانت سعيدة بخروجها من الملجأ. وأما ما عدا ذلك فيمكن مناقشتة لاحقاً.

عاشت صباح أيامها الأولى سعيدة بالتغير الذي طرأ على حياتها، ولكن في نفس الوقت تحس بتلك المسافة الزمنية التي تفصلها عن زوجها ومدى رغبتها فى إشباع كل ما تتمناه. ولكن في أماكن كثيرة يتضح عجزه ويبرز الفارق الزمني بينهم.

ابتدأت مشاكل جديدة تدخل في حياتها، فلم تعد الأبواب والقضبان والسجان ملموسة ومحسوسة هذه المرة، فهي موجودة هذه المرة بحدة أكثر، ولكن لا يمكن تجسيدها بأشكال بعينها.

بدأت تحس بالحاجة إلى من هو فى سنها، بدأت رغبتها تنضج وأحلامها تكبر .. بدأ شبح الملجأ يتلاشى من ذاكرتها .. ليحل محله السجن العائلي مع هذا الزوج العاجز عن إشباع رغبتها والذي لا يربطها به عاطفة أو فكر أو رغبة ..

هنا بدأت تبحث عن إشباع رغبتها وهي بنت السادسة عشرة بعيداً عن هذا الشبح الذي تجاوز الخمسين، وفي هذه المرحلة تعرفت على الجدوى الاقتصادية.. التي يمكن أن تجنيها من غرائزها ..

فقررت أن تضع خطة محكمة من خلالها تشبع رغباتها الأنثوية وبنفس الوقت تبني لها مكانة اقتصادية لا تحوجها للغير ولا تعيدها إلى الملجأ مرة أخرى خصوصاً وأن أحوال زوجها المادية اقل من متوسطة..

وهنا بدأ أسم صباح يلمع ولكن في الليالي المظلمة وبدأت خانات الآلاف تتبع خانات المئات والعشرات في رصيدها وبنفس الوقت اتسعت دائرتها العائلية بعد إنجاب الأبناء والبنات. وهنا بدأت صباح تضع لنفسها شكلاً اجتماعيا يتناسب مع ما يطلبه الآخرون من محافظة على كل المناسبات الاجتماعية والأسرية والدينية وبنفس الوقت ممارسة كل ما تريد في الليالي المظلمة ..

وعندما تقدم بها العمر تساءلت .. عندما كنت في الملجأ لم يكن لي خطايا والآن أخطائي تملأ المكان والزمان ولكن أعيش بكامل صحتي الاجتماعية.

غاب عقله فتلوث فهمه

أكاد أشعل الكلمات ... أحرق جميع السفن، أواجه المستحيل بالمستحيل، أصدم الواقع بالواقع ... بهذه الصورة كان يبدو وبهذا السواد كان يتوشح ...

تساءلت عن ملفه الصحي وخاصة صحته النفسية وسلامة قواه العقلية، ولكن لم أجد سبباً مقنعاً لما يتلبسه.

أحاول أن أحاوره، ومن أبسط مبادئ الذوق، استئذانه بفتح حوار، المفاجأة أن المضحك في حين قد يبكي في أحيان، فما أن يسمع هذه المفردة حتى يزداد سواده سواداً، ويردد نحن أمة الحوار، أمة الكلمة، أمة الصراخ،

نحن كما قال أحدهم ذات يوم: ظاهرة صوتية يغمض عينيه ويقرر: نحن أمة النسيان أيضاً، أعطني حواراً حل قضية، لكي أستجيب لحوارك.

هنا أجد نفسي في مأزق البدء، وعندما تغيب البداية فلا عقل لمن ينتظر النهاية، وهذا ما دفعني لتجاهل أمر صاحبي إلا أن رؤيته بدأت تعبر أسوار نفسه لتتسلق على خصوصية الآخرين وتصبغهم بتلك الصبغة التي لا ترى ملامح الشروق في عتمة الليل بينما تعيش

ظلمة حالكة في عز الظهيرة ، وهنا أصبح منهج صاحبنا يتجاوز تدميره ذاته... إلى غيره ...؟؟

مما دعاني إلى طلب العون من ذي القربى والأصدقاء والزملاء عبر برنامج انتخابي يضع نجدة الصديق في مقدمة أولوياته، ولكن ما راعني هي العناوين التي رفعت تحت ظل الوفاء للصديق والصداقة،

فكان أقل ما توصف به أنها صورة مشوهه للصفاء وفهم أهوج لكل معاني الانتماء.

نعي ترقية

ظروف العمل هي التي تحدد موعد العودة للمنزل، وإن كنت في أحيان كثيرة أتلهف إلى انتهاء الدوام، وتنتابني في الدقائق الأخيرة فرحة عارمة تماثل – إن لم تتجاوز – تلك الزخات من الفرح التي نتراشقها معشر الطلاب عند انتهاء اليوم الدراسي.. أقصد عندما كنت طالباً. ولاشك أن مثل هذا الشعور لا يزال يدغدغ أحلام الطلاب.. وعند بحثي داخل ذاتي عن مبررات هذا الفرح تكون النتيجة مخيبة، إذاً لماذا كل هذه اللهفة.. ؟ لعله الشعور بالقيد وفرحة الانفلات منه!! قد يكون..

أعود.. استمع إلى ترحيب الصغار ومطالب الكبار.. ألبي ما استطعت من الرغبات.. وأحيل بعض المعاريض إلى لجنة النظر وأخرى إلى الصياغة وثالثة إلى الدراسة وبطبيعة الحال كل هذه اللجان أنا.. لا يكون تقديم الطلبات في مكان واحد ولا يشهد هذا الموقف إعلام داخلي أو خارجي بل يتم من خلال جولة أقوم بها على أماكن تواجد الأسرة في المنزل.. لا.. لا... أسرتي تعد بأقل من المئات.. قد لا تتجاوز عدد أصابع اليد وسر تفرقهم داخل دائرتهم الضيقة هي تباين أمزجتهم، فالصغار يتابعون أفلام كرتون وستار أكاديمي وما شابه من خلال تلفازهم الخاص، نعم الخاص..

الخصوصية أصبحت مطلبا ملحا حتى في أشياء تكمن حلاوتها في كثرة الموجودين قيل (الجنة اللي ما فيها ناس ما تنداس) ولكن لعل

كل واحد وجد ناسه من خلال الشاشة الصغيرة فالمربع أو المستطيل الأخضر وساحرته التي تنتقل من قدم لقدم متواجدة دوماً في إحدى الغرف..

والمسلسلات المدبلجة الباردة تقطن الغرفة المجاورة.. وكل هذا يبعث في نفسي غثاء يستدعي صور تصنف بالتخلف والجهل و و و ولكن لا تنتج العفن والاتكال والتكلس..

كل هذا اعتدت على احتوائه في رحلتي اليومية تلك إلى صومعتي كما تسميها الأسرة وهي عبارة عن كتب مسجاة على العديد من الأرفف بلا نظام ويتم الإضافة لها بين الحين والآخر ووسط الأوراق المبعثرة والأرفف المنتشرة هناك بقعة تتسع لشخص واحد فقط وهو.. أنا... أضع لحمي وعظمي في هذا المكان وأبدأ في رحلة وسيلتها مخيلتي وبوصلتها الأقرب إلى يدي من تلك الكتب..

في هذا المساء كنت مهتماً كثيراً بترتيب أفكاري وأولوياتي وبنظرة فاحصة إلى الكتب المتناثرة بجانبي. قررت أن الشبه بيني وبين هذا المكان يصل إلى التطابق وعندها بدأت في إفراغ بعض ما يسكن رأسي من الأفكار والآمال والخطط غير القابلة للتحقق ومحاولة استغلال أشياء أخرى مكانها وليكن أي شيء!!

المهم أن استفيد من المساحة المملوءة بالأوهام والمسيطرة على ذاكرتي بشيء مفيد.. وما هو معيار الفائدة عندك ؟؟..

قالها آخر ليس بعيداً عني أنه يسكن في داخلي يسميه الطيبون الضمير وهناك من يدمغه بالجبن والوسواس والتخلف والكثير..

ولكن لن أجيب عليك أيها الآخر مهما كانت تسميتك.. وبدأت أدير عيني بسبق إصرار وترصد ظاهر وقعت عيني على ملف كبير.. نهضت وأحضرته وبدأت أقلب أوراقه وأقف عند كل ورقة كانت تحمل ذكرى معينة.. هذا قرار تعييني (الله)... قبل عشرين عاماً.. هذا أول إنذار حصلت عليه.. كان سببه عدم وقوفي عند دخول المدير للمكتب الذي كان يضمني مع زملاء من قطر عربي آخر وكانت لهم طرقهم في الاحتفاء بسعادة المدير ولم أكن أحسن مثل هذه الملكة، لذا فقد كان عدم وقوفي جرماً إداريا..!..

المصلحة الإدارية مرتبطة بل ملتصقة بمصلحة المدير ورؤيته، فهو المسئول والمطلع على ما لا نعرف.. اذكر أني يومها طأطأت رأسي بمسكنة مصطنعه كان دافعها العديد من الالتزامات.. الإيجار، مصاريف الأطفال، الكثير والكثير جعلني ألتهم هذا الإنذار وأهضمه صفحات كثيرة من شهادات الشكر والتقدير جعلتني أسترد بعض كرامتي التي أهدرها ذاك الإنذار المزعوم ولكن أبحث عن ورقة واحدة تفيد بأن شهادات الشكر تلك ترجمت إلى شيء عملي كترقية مثلاً قبل أن تكمل هذه السحابة الصيفية مافيها من دموع.

تقع عيني فجأة على ورقة تفيد باستكمالي المدة المقررة على هذه المرتبة واستكمال جميع العلاوات وتوقف المرتب بل تجمده على حد معين لحين الترقية إلى مرتبة أخرى.. كتب في رأس هذه الورقة التاريخ التالي (١-٨-١٩٩٥)...

يا إلهي منذ عشر سنوات لم يزد مرتبي رغم أن مرتبات آخرين تسير بسرعة مذهلة في الزيادة الشهرية وليست السنوية وهنا اتخذت القرار التالي:

يجب أن تكون هواجس الترقية والعلاوة أول ملف يتم إتلافه، وليكن ذلك بشكل علني. نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى السابعة مساءً..

اتصلت على الجريدة ،،،: مرحبا،

الجريدة.. ،،: نعم..

،،،: مرحبا، لدي إعلان ربع صفحة ،،

وما طبيعة الإعلان ؟

،،،: نعي!!

،،،: أحسن الله عزاءك وعظم الله أجرك، تفضل..

،،،: أنعي إلى كل الطامحين..

،،،: لا تستعجل يا أخي تقول (أنعى إلى كل الطامعين)!!.

،،،: لا، يا عزيزي الطامعين يتم تهنئتهم والتبريك لهم، بل أنعي كل الطامحين.

أكمل إعلانك لو سمحت قبل أن أكتب. علي أن أتأكد من صلاحيته للنشر قبل الموافقة على قبوله هكذا (قال موظف الإعلانات).

مما دفعني إلى الرد عليه بانفعال واضح: يا أخي أريد أن أحجز مساحة أدفع مبلغا فأكتب فيها ما أريد وأنعِي من أريد، وعلى أية حال كنت أريد أن أنعي تعبي وعرقي وأيامي التي كان ثمنها ترقية موعودة، فوجئت هذا المساء بموتها قبل عشرة أعوام.

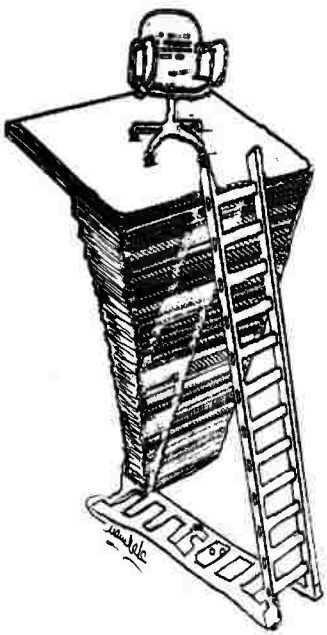

الدائرة المفتوحة

تدور مع دولاب الحياة في رحلة يومية متكررة، تكاد تتشابه مفرداتها وأحداثها؛ لدرجة الملل والغثيان؛ لتحس وكأنك في دائرة مغلقة، تحاول جاهداً فتحها من خلال القوة الساكنة في أصابع يدك.....

تتحرك أصابعك مباشرة في اتجاة رأسك، تأخذ تتحسس خصلات شعرك منذ زمن طويل لم أذهب إلى الحلاق، هكذا تحدث نفسك ...

تنهرها بشدة وهل كانت مهمة أصابعي في رحلتها الميمونة نحو رأسي معرفة طول شعري ودرجة نعومته أم هي تعبير لا إرادي عن عجزي وضيقي وسأمي من أمسي ويومي وغدي بهذا التصور ؟.

يجب على الأصابع أن تتحسس قدرات وأبعاد الرأس ...

تبدا الأصابع بالتحرك، تأخذ سرعتها تزداد حتى تبدأ جلدة الرأس بالتقرح،

فترسل العديد من خطابات التوسل والرجاء لأصابع اليد اليمنى بالتوقف عن ممارساتها الإجرامية تجاه القيادة العليا لهذا الجسد....

وهنا تنزعج أصابعك وتتجاوب معها ملامح وجهك راسماً صور متسارعة ومتضادة تجعل من يشاهدك يتيقن بوقوعك في مطب (ما)

ولكن تظل الحقيقة تسكن أعماقك لتشعلها من جديد في تصرف آخر نحو عضو أو آخر من جسدك لا يهم أين ؟..؟...

صدرك...بطنك...فوق...تحت... لا يهم ...فقد أطلقت العنان لأصابعك لتعيث بأعضاء جسدك فلم تعد حصانه لأي جزء من أجزائه بعد أن تجرأت تلك الأنامل على الرأس ...

المطلوب تفريغ هذه الشحنة غير المرغوب فيها من الحيرة والملل والقهر....تجرب كل شيء ...

ولكن دائماً يكون السرير هو المدفن الحقيقي لنفايات نفسك وانفعالات جسدك .

تأخذ نفساً عميقاً محاولاً تلمس الخيوط العريضة لحيرتك قبل أن تبدأ بإبطال مفعول كل قواك الخيّره والشريرة ....

فجأة تظهر لك !!! ....لا .... لا ....

لا يمكن أن تراها وأنت فاتح عينيك ... أغمضهما ... نعم ... نعم ....

هكذا أغمضهم تماماً .. أبتعد عن فوهة بئرك ...

حاول أن تزرع بعض الأزهار في المحيط ... هنا تظهر لك ...تواسيك ... تهديك بعض أغصان التفاؤل تفتح الكثير من النوافذ في جدران ظننتها غير قابلة للهدم .... تشعل بعض الشموع ...

تشاهد جمال تلك الغرف التي تحتوي على كل شيء ولكن تفتقر إلى النور .... النور فقط ...

تقرر أن تجعل إحدى أولوياتك يوم غدٍ الذهاب إلى شركة الكهرباء ... لا ... لا ...

لن تتحدث عن أسهمها وغيرها من الشركات وكيف أصبحت سبباً مباشراً في قطع تيار الحياة عن الكثيرين من الذين وضعوا أحلامهم وثقتهم في مثل هذا النشاط...لا ... لا ....

سوف تطالبهم بإنارة تلك الغرف غائبة الجمال بسبب غياب النور .

ألم تجعل تلك الفاتنة من أحلامك حقائق ؟؟!!!

وتربط هذا كله بالظلم والظلام ... فعليك أن تبدأ الخطوة الأولى في مشروع قد يشاركك فيه آخرون لتحقيق أهدافه ويزول الظلام ذات يوم...

هكذا قالت!!...

من هي؟؟!!!

لم اسألها عن اسمها !! وهل ستجيبك لو سألت؟؟؟!! ... ستقول أي اسم ....

وكيف عرفت ؟؟؟

ألم تسمع بالأسماء المستعارة... والوجوه المستعارة ...

والأحلام المستعارة... بل... و... المستعارة!!!!.

البحث عن فزاع

(كان يوماً طويلاً ومزعجاً)، قال هذه الجملة مصحوبة بتأفف متواصل وهو في طريقه إلى داخل الشقة بعد أن أغلق الباب خلف آخر زائر.. لم تمهله (نوال) حتى يصل إلى حيث هي لتشعره بأنها دائماً معه.. حتى وإن كان يكلم نفسه، فعليه أن يتعوّد على وجودها المكثّف من الأيام الأولى للزواج.. قالت بصوت مرتفع:

– ماذا أزعجك يا فيصل في هذا اليوم ؟ لقد كان حافلاً بوجود عدد من الأقارب والأصدقاء.. وكما جرت العادة فلا بد من التهنئة في مثل هذه المناسبات، خاصة وأنا عروسة جميلة..

أتت جملتها الأخيرة مصحوبة بدلال خجول تظلّله ابتسامة عريضة. لم يستطع أن يتجاهل ابتسامتها وإن كان بادي التذمر والضجر.. وغير قادر على إخفاء شعوره، فابتسامته مقتضبة لم تلبث أن اختفت ليعود لعبوسه، مما دعاها إلى سؤاله مرة أخرى.. عن سبب هذا العبوس الواضح على محيّاه رغم أنهما ما زالا في الأيام الأولى من الزواج وتساءلت بحدة:

– هل أنا السبب يا فيصل ؟

– أبداً يا عزيزتي، ولكن كان مفترضاً أن يتاح لنا مزيد من الفرص لنتعرّف على بعض أكثر.. دون مساعدة من أحد، ألم تسمعي؟

لقد تبرعت أختك برواية جانب كامل من حياتك وخاصة المعتم منها.. كما تبرعت أمي بقراءة أدق تفاصيل حياتي لدرجة أنها بررت سبب رفضي الرضاعة من أم راشد بأني كنت (بطران) حتى وأنا رضيع.. رغم أن الواقع خلاف هذا فقد كنت أكره رائحة صدر أم راشد.. نعم كانت سيّدة بدينة لا تعتني بنظافة جسمها، وأنا كنت متحضّراً حتى وأنا رضيع. أليس هكذا يا روحي ؟ .

– واضح يا حبيبي، ولكن دعهم يقرؤوننا كما يريدون، ونحن سوف نقرأ أيامنا وذكرياتنا بطريقتنا، وسيأتي يوم يقرؤنا أبناؤنا بطريقة مختلفة.. أليس كذلك ؟ لم يكن الوقت يسمح بالمزيد من النقاش.. فغداً سيكون اليوم الأول لعودة فيصل للعمل بعد إجازة الزواج، وعليه أن ينام.. وضع رأسه على المخدة بعد أن أطفأت نوال الأنوار..

وأخذ يستعيد ملامح الطريق الطويل الذي قطعه حتى استطاع دفع المهر ومصاريف الزواج واستئجار هذه الشقة الصغيرة في هذا الحي المتواضع وتأثيثها باللازم والميسور ليبدأ مع نوال مسيرة حياتهما الزوجية.

بَدَت تعبر مخيلته العديد من الصور البعيدة. حَاول التقاط إحداها.. أخذ يمارس كل تقنيات التصور الخيالي ليتحسس ملامح

الصورة التي تبدو بعيدة، ولكنه يلمح عمه فزَّاع يُنادي وسط القرية.. ترى ماذا يقول ؟

لقد وقف على دكة محل الشيخ عثمان وأخذ يُعلن عن زواج فيصل من ابنة عمه نوال، وأن على أهل القرية رجالاً ونساءً التوجه إلى منزل الشيخ أبي فزاع لترتيب احتياجات الزواج.

أخذ أهل القرية بالتوافد على منزل أبي فزاع، حيث توجه الرجال إلى المكان المخصص لهم وتوجهت النساء إلى المكان المعد لهن.. كان فزاع شهماً وذا صوت قوي، وحال تكامل أهل القرية وقف خطيباً فيهم.

بدأ حديثه بشكرهم على هذا الحرص والتواجد في كل المناسبات التي تمر على القرية وأبنائها ثم هنأ العروسين وطلب من الحضور أن يقوم كل واحد منهم بالتهنئة على طريقته، داعياً والده الشيخ أبا فزاع أن يكون أول المهنئين..

لم يطل الشيخ أبو فزاع، فقد اكتفى بكلمة مبسطة، وقدم مفتاح إحدى فلله كهدية للزوجين لينسجا فيها عشهما الجميل، ثم بدأ الأقارب – حسب التسلسل العائلي – بتقديم تهانيهم التي تراوحت بين الشيكات ذات المبالغ الكبيرة من الأعمام والأخوال وأبنائهم والمبالغ النقدية الرمزية من بقية أهل القرية..

وفي الجانب الآخر كانت هيا تمارس دور فزَّاع لدى النساء، حيث شكرتهم وبدأت تجمع تهانيهن للعروسة وكانت التهاني عبارة عن العديد من الحلي الثمينة والمعدات الكهربائية التي يحتاجها المنزل الجديد.. قامت إحداهن وجمعت هذه الهدايا في صندوق.. أخذ فيصل يتابع هذا الصندوق.

تاه الصندوق.. يحاول استعادة الصورة..

يحاول إخبار عمه فزَّاع بما جرى للصندوق ولكن تاه هو الآخر..

أخذ يصرخ..

– ضعيه هنا.. ضعي الصندوق.. الصندوق هنا..

أفاقت نوال على صراخه..

حاولت إيقاظه من هذا الكابوس المزعج..

آفاق.. ماذا.. أين.. متى..؟

– ماذا بك يا فيصل ؟

– نعم.. كنت أحلم.. كم الساعة الآن ؟

– الساعة تقترب من الثامنة صباحاً قم واستعد للعمل..

– إذاً عليك بتجهيز الإفطار ريثما استعد.

دخلت نوال المطبخ لإعداد فطور سريع يغيّر به ريقه قبل أن يمارس عادة التدخين الكريهة التي يصر على الإكثار منها كل صباح..

وضعت (إبريق) الشاي على النار بينما بدأ فيصل بارتداء ملابسه وكان واضح الهمة،

فكان في شوق لرؤية زملاء العمل، ولديه الكثير من الأشياء التي سوف يخبرهم بها عن زواجه وسعادته مع زوجته.. جرس الباب يدق وبقوة.. طلب من نوال،

أن ترى من الطارق في مثل هذا الصباح.. علّه يكون الشيخ أبا فزَّاع أو العم فزَّاع..

أتى صوتها من بعيد يخبره بأن الطارق في هذا الصباح الباكر مندوب شركة التقسيط،

يشعره بأن القسط الثاني أصبح واجب السداد وعليه القيام بتسديده فوراً، وكذلك كان برفقته صاحب المكتب العقاري يطالب بإيجار الشقة..

وسمع فيصل هذا الكلام، فعاد إلى خلع ملابسه من جديد وحشر نفسه في السرير وعندما سألته نوال عن سبب هذا التصرف

قال:

– سأبحث عن عمي فزاع، لعلي أعثر عليه.. هذه المرة.. لـن أدع المرأة تحمل الصندوق سأحمله أنا..

نهـاية رجـــل

حَمل الابتسامة فوق كاهله طيلة حياته بأيامها الطويلة الساخنة أحياناً والباردة أحياناً كثيرة...

عايش الجوعَ والكد والعرق بمعانيه الحقيقية المليئة بالمعاناة الجادة بل النازفة...

عرفت قدماه لَسْعة الرمضاء... غلا جبينه من حر (القيلولة)...

تاه بصره منذ الصغر في البحث عن قطعة حلوى غلت بها الأيام عليه وحرمته منها حتى نسي طعمها تماماً...

لم يعد يعرف غير المرارة المشبعة بدماء الأيام.. بعرق السنين..

إلا أن هذا كله لم يلغِ الابتسامة من قاموسه، بل هي المفتاح السحري والرحيق الهادي الذي تستنشقه الأيام، فتهدئ ثورتها وتطبع علاقاتها مع نفسه المتعبة لتريح نفسه اللاهث لتمنحه ظلاً بين شجيرات النخيل ليعيد التعرف على طعم بلحها ولسع شوكها...

حرمان الأيام وآلامها علمته عدداً من الدروس التي أخذت تتساقط كورق الخريف عبر أزقة أيامه الجديدة...

لم يعد يعرف لسعة حر (القيلولة) وهو يمدد قدميه تحت ألسنة الهواء البارد المنبعث من فتحة المكيف، وأصابع يديه تلاعب

أزاريز (الريموت كنترول) بحثاً عن محطة فضائية تبث أحد البرامج المفضلة لديه.

شيء واحد بقي مع صاحبنا عاش معه ملازماً إياه كنفسه هو حب المال خوفاً من الفقر...

نعم كان المال وراء تحقيق الكثير من آماله ابتداء بأول حذاء حمى قدميه من شوك النخيل ولسعاته المؤلمة، وانتهاء بالسيارة المكيفة التي تقف عند الباب بخيلاء تنطلق بمجرد امتطائه لصهوتها...

دفعه هذا الإخلاص بحبه للقرش.. بادله المال حباً بحب، فكانت أمواله تزيد وتجارته تتضاعف بمقدار تضاعف الرغبة والحرمان في عيون أبنائه...

عندما عرف أكبر الأبناء كيف يتعامل مع الشارع والناس، ازداد ذهوله وحار فكره فكيف يوفق بين المشهدين ليجعل البطل واحداً...

إن الرجل الذي يتحدث عنه الناس والده...

وكذلك الرجل الذي يتناول معه الغداء كل يوم في المنزل بين أمه وإخوانه، ويقوم بتوزيع قطع اللحم عليهم بشح واضح هو والده أيضاً...

الأول تاجر كبير، ثروته يتحدث عنها الناس... ويدفع الكثير من الأموال لتحسين صورته لديهم...

الثاني الذي يعيش معهم في البيت هو نفسه التاجر الكبير... يوقف الدنيا ويقعدها لو احتاج الواحد منهم (لقلم)،

أما إذا تطوع أحد المسامير ومزق ثوب أحدهم، فإن هذا يتطلب تدخل أطراف خارجية يتطوع الجيران عادة بالقيام بمثل هذا الدور...

بدأت أيامه تذبل وشمسه تؤذن بالمغيب في الوقت الذي كبر فيه الصغار وأخذت ثمارهم تنضج في مناخ يحمل الكثير من المخصبات النباتية والإنسانية أحياناً لتطرح الأشجار ثماراً ناضجة، ولكن من الخارج فقط. أما مذاقها، فلا يدل على أي معنى للنضج...

تاهوا جميعاً في رسم الأحلام وترتيبها انتقاماً من أيام الحرمان وشقائها بعد أن يغيب هذا الحارس الأمين الذي جمع وتعب ولهث وجاع..

خصوصاً أنه بدأ يفقد اتصاله بالدنيا شيئاً فشيئاً... إنهم وحدهم القادرون على تحديد المبلغ المتبقي له من ماله وكده.. هل يتم وضعه في مستشفى ليتولى العناية به في أيامه الأخيرة.

يعارض الابن الأصغر ويرفض ويندد بشدة، ويطلب تخصيص غرفة في المنزل وتَحَمُّل مرتَّب شغَّالة للعناية بوالده العزيز.

أنا وهي

أَحمِلُ أفكاراً جَميلة..

خيالاتي أيضا رَهيبة..

لَستُ أَنا من يدَّعي ذلك..

ولكن سمعت جارتنا تحدث أمي عني وتصفني بأوصاف كاملةٍ وفضيلة، من يومها أخذت أُهذِّب ذاتي وَأَلغي الزوائد غير المحببة في تصرفاتي ليس قناعة مني ولا لرغبة مكبوتة داخلي..

ولكن لكون جارتنا أشارت باستحياء عن بعدي.. بحمد الله عن مثل هذه المناطق الهزيلة.. وإن كانت تعلم قربي من بعضها.. رغم هذا احترمت في الجارة إنصافها.. وأصبحت نفسي تدري أو لا تدري رهن إرعاشتي أطرافها.

لم أكن قادرا على سماع جرس الباب ولا حتى التلفون وحتى في حالة اقتحام صوته المزعج لرأسي يقوم غيري بإكمال هذه المهمة، ولكن بعدما قالته جارتنا الكريمة بدأ سمعي يتلصص على وقع نعليها..

لذلك تجدني أُبادر بفتح الباب قبل أن تمتد أناملها بطرقه، وهذا جعل أبي وأمي وكل من في البيت يحاول أن يختبر قدراتي العقلية، واكتشاف السر وراء هذا التغير المفاجئ في شخصيتي ومن

قبلي، فكان عدم المبالاة الإجابة الجاهزة لمثل هذه الاختراقات القادمة من أذن هذا أو لسان ذاك..

هي المُنْتَصرة دائما..

هي الصادقة دائما..

هي الباحثة عن الحياة..

الحكمة والعدل وكل القيم الجميلة اسمعها من لسان هذه الجارة بينما تتلعثم أخواتي ويخرس أخوتي.. عن قول ربع بل خمس بل عشر ما تقول جارتنا الفاضلة..

ورغم هذا.. هناك من يرصد التغير في شخصيتي..

ويحاول أن يستعين بالجان..

لا للبحث عن شفائي فهذا غير مهم.. ولكن دائرة معلوماته وشبكة مخابراته لم تسجل سببا مقنعا لمثل هذا التحول وإن كان السبب أقرب إليه من علبة سجائره أو مسبحته أو أي علامة ارتني أنه تزيف صورة سعادته وتفهم لدى ذاته لم يعِ صاحب السعادة أني شاهدت ما حذف من الفيلم..

وعلمت بما مزق من المحاضر.. وأسمعت ما تم الهمس به أثناء استبدال الأدوار.. آسف.. البدل أو المعاطف أو الثياب.. فهي سيان.

لم يكن فهم الحديث الهامس الذي دَار بين الجارة وَوَالدي تحت الدرج.. أمرا عصيًا على مثلي.. كما أن المبلغ الذي وضعته أمي في صدر مخدتها بعد زيارة الجارة وهي تدحرج رقبتها ذات اليمين وذات الشمال بطريقة جعلتني أخشى عليها من التصلب، لم يكن مثل هذا التصرف خافيا. ماذا ينتظر من مبصر حديثا مثلي.. نعم أملك البصر منذ الولادة.. وحتى الآن.. ولكن تلمس البصيرة يظل غاية المبصر وطموح الأعمى..

وهذا ما دعاني إلى معرفة المعاني الكبيرة التي بُنيت عليها الأفكار.. أفكار الجارة الكريمة.. وجعلني كذلك أعجب باكتشافها مناطق تائهة في شخصيتي لم تلمحها من عانت في لحظة إطلالتي على هذه الدنيا.. وهي الأقرب والأجدر على اكتشاف خفايا ذاتي.

هنا بدأ الغمام ينقشع.. وأخذت أسلحة الجارة الكريمة تتكسر.. وبدى أن نوعا آخر من الوعي أخذ ينمو داخلي في محاولة واعية لإعادة الأسماء إلى مسمياتها..

وكشف السماسرة المنتفعين من تزوير الأشياء أمثال الجارة الذكية.. وبمجرد نعتها بالذكاء بدأت الصورة تتفاعل في الذاكرة لمحاولة إيجاد مصل واق عن تزوير وتزييف هذه الجارة لكي

يتجنب الآخرون الوقوع في حبائلها كما وقع أبي وأمي، وقد أكون يوما ما إحدى الضحايا رغم وعي المدعي.

شعار وضّاح

كانت سعادته غامرة وهو يخطو خطواته الأولى في هذا المصنع قبل أكثر من عشرين عاماً كلمة واحدة أخذ يرددها وضاح الباين من لحظة تسلمه خطاب التعيين في مصنع الأجهزة الطبية على كل من يقابله ويحاول الانتقاص من فرحته إما لقلة المرتب أو لصغر المنصب خاصة وهو جامعي وكان وضاح يرد بكل قناعة يكفي أنني سأعمل في مصنع هو الأول من نوعه في العالم وأختلط بعقول ذات علم وخبرة قال هذه العبارة آخر مرة بقناعة تامة وهو يترجل من سيارته في أول يوم عمل ليرى أفخم أنواع السيارات بأحدث موديلاتها تتجاور بتنسيق في الموقف المخصص لكبار موظفي المصنع بعدما تخلص من سيارته المتهالكه خارج المبنى حاول وضاح اختبار معلوماته في عالم السيارات وأنواعها وهو يتفحص أفخمها لم يتعرف سوى على القليل منها أطلق صرخة في الفضاء كما تعود في كل مرة تداهمه (نوبة الشفافية) كما يسميها.. .

قال كم الراتب قال...

يا عم شف وجه العنز واحلب لبن، آخر موديلات شفها صافة تقول بيالات.

واصل وضاح الباين رسم بقية معالم الصورة لهذا الصرح العلمي الهام ليتوقف عند سؤال ترى هل سأجيد التعامل مع هؤلاء العلماء..؟

ردد بقناعة تامة سأحاول، سأبذل جهدي كي أكون جديراً بمعرفة هذه الصفوة من العلماء والعيش معهم.

أفاق وضاح من شريط ذكرياته على صوت فليح المنتفش مدير مكتب المدير العام للمصنع وهو يؤكد عليه للمرة العاشرة بقوله: « اسمع يا وضاح لا تخلق لنا مشاكل مع سعادة المهندس قني المخندر. أنت تعرفه إذا زعل ».

رد وضاح بحدة اكتسبها مؤخراً: « إلا أريد أن سألك يا المنتفش إذا كان سعادة المهندس المخندر جلس أسبوعا مترددا في اختيار شعار لمناسبة روتينية رغم كثرة شعاراتنا وقلة بركتهن. ترى كم من الوقت يحتاج لإقرار زيادة أو نقص الإنتاج في إحدى الخطوط بالمصنع؟».

تلقى فليح المنتفش السؤال بتجهم واضح بعد ما كلت يديه وهو يشير لوضاح بأن يخفض صوته، ورد بذكاء مصطنع «أنت مستغنٍ عن عيالك ياا وضاح لا أحد يسمعك تسأل مثل هذه الأسئلة فما أهلك من كان قبلك سوى هذه الأسئلة المغرضة.

انصرف وضاح ليردف المنتفش بصوت مسموع « أشوفها طالت وشمخت يالباين !! ».

لم يكن هذا التحذير رادعاً كافياً لوضاح للابتعاد عن دوائر الشك والمقارنة ومحاولة فهم واقعه الذي يطال حتى قوت أبنائه، كما هدد بذلك فليح المنتفش بل العكس من هذا فلقد تحولت تلك العبارات التهديدية إلى محفز فعال لتوليد الأسئلة داخل نفس وعقل وضاح الذي لم ينتظر طويلاً فخلال عودته لمكتبه كان مطأطأ الرأس ويعبر بجسمه النحيل ممرات المصنع برشاقة وخفة إلا أن رأسه أخذ يزدحم بالأسئلة المطالبة بالإجابة خاصة وهو الذي أمضى زهرة شبابه في هذا المصنع حتى قبل أن يكلف المهندس الشهير ربيع الفاصل بإدارة هذا المصنع. نعم قالها بحرقه «حتى سيارة المخندر لم تكن ضمن سيارات كبار المسؤولين عندما دخلت هذا المصنع لأول مرة كان مهندس مغموراً سنيناً عديدة بدأ نجمه يلمع في عهد خاله ربيع الفاصل، وقف وضاح فجأه في وسط الممر، أخذ يقلب بصره في كل الاتجاهات دون مبرر وطرح على نفسه سؤالاً جعله يصارع طيلة يومه الحيرة والقلق حتى أنه لم يستطع إكمال طريقه للمكتب فاتصل بمحموله على سكرتيره وأبلغه بأنه يشعر بالتعب وعليه أن يؤجل بقية الأعمال إلى الغد.

حاول أن يطرد تلك الصور المستفزة التي بدأت تحجب الرؤية عنه وهو في طريقه للمنزل وجد في أبنائه مخرجاً مثالياً من تلك

الدائرة اللزجه التي وقع بها أخذ يمازحهم ريثما يتم إعداد الطعام، ولكن فجأه دون سابق إنذار قال لزوجته أثناء تناول الطعام: يا مزنة وش رايك لو كانت أمي أخت المهندس ربيع الفاصل؟ ما أكون أنا بمكان المهندس قني المخندر. ردت مزنة باستهتار واضح: يا خلاف وش جاب واحد معه شهادة تاريخ وبتقدير مقبول مثل مهندس تعب وسهر وتغرب أقول لا تحلم كثيراً يا وضاح ؟ .

توقف عن الأكل فجأة وأصدر تنهيدة قوية وقال: بلاك والله ما تدرين يا مزنة!!. ردت بانفعال واضح:هذي عادتكم يا الرجال تظنون أن المعرفة والفهم لكم بس.! وراي ما أدري مالي راس وعيون ومتعلمة ولله الحمد، معي ثانوي وإلا نسيت؟

رد بتودد لا ما نسيت. ولكن أقصد الأشياء المخفية هي اللي تؤثر على القرار وليس الشهادة والكفاءة والاستطاعة..

شعرت مزنة بأهمية الموضوع ونظرت لوضاح وبين شفتيها سؤال عريض تتسابق حروفه للخروج من فمها فيخرج السؤال مختلطاً بحبيبات الأرز قصدك أن المخندر عين مدير عشان الفاصل خاله. ؟!

أجاب بحرقه: هذا قصدي وهذي شهادته الفعلية .

ذابت مزنة مع ذاتها في لحظة تأمل وأخذت عيناها تبعث بريقاً غريباً ينم عن دهاء فطري وقالت بلغة واثقة: خير يا طير ضاعت ولقيناها يا وضاح. بدال ما تغير أمك وإلا أبوك وتعيد تشكيلهم من جديد فكر بذكاء ينفعك وينفع عيالك يا حبيبي .

برقت عيناه هو الآخر طالباً من مزنة إيضاح فكرتها فواصلت أقصد يا عيوني خلك ذكي أخوك الحمد لله مهندس وشاب وسوف يتزوج في يوم من الأيام دور له وحده يكون عمها وإلا خالها مخندر أو فاصل وبهذه الطريقة ما تحتاج تغير أمك يا حبيبي.

ببراءة طفولية علق وضاح على هذه الفكرة» ساعتها أفرض الشعار اللي أبي ويكمش المنتفش ويصير أرنب. أحست مزنة بحلاوة النصر فأكملت لا يا زوجي الحبيب ساعتها تبدأ تآمر وتنهى واللي حولك عليهم الطاعة وليش ولدنا ما ينقصه شي فحل ولد فحل، وإن شاء الله بعد تسعة أشهر من العرس يرزقه الله بولد يصير خواله مهندسين ورزة وإلا.. لا... يا وضاح وتصير عم المهندس.

لم يلتفت لبقية تصورات مزنة متعللاً بتعبه وحاجته للنوم، حاول أن ينام أخذ يستبدل المخاد ظناً منه أنها غير مريحة رغم هذا لم يستطع النوم ليردد بحرقة» ما أبشع أن تجبر على تغيير جلدك وقناعاتك هل كنت طيلة عشرين عاماً جاهلاً بمفردات الحياة وأنا أخوض معاركها اليومية بنزاهة وشرف ألم أكن محقاً بالاقتران

بمزنة لكون خالها رجل طيب مضيافا محباً للصدق ويعمل نجاراً أما عمها فإنه هو الآخر مكرماً للغريب قبل القريب ويعمل جزاراً لقد نالت قصداً من التعليم لابأس به يؤهلها لأن تكون أماً وسيدة منزل على أفضل ما تكون الأم أينقص من قدر مزنة لدي رصيد خالها أو والدها رحمه الله في البنك.. ؟!

أي مهندس غبي ذاك الذي يبني الثابت على المتحرك، أخذ نفساً عميقاً وقال:»نعم وألف نعم إن المبادئ والمثل ووضع الأشياء في مواضعها إن كان متعذراً تصوره في هذا المصنع المبتلى بالمتردية والنطيحة وما أكل السبع بكل تأكيد لن تتجمد الصورة على هذا النحو لكونها بطبيعتها متحركة وهذا يؤكد أن الأحاسيس الجميلة والمشاعر الصادقة لا يمكن بأي حال من الأحوال تشييدها وتصور ديمومتها وهي ترتكز على المصالح الآنية والأنانية أحياناً، هنا نهض وضاح من فراشه واتجه للشرفة المطلة على فناء فلته المتواضعة التي تبقى من أقساطها الشهرية نحو عشر سنين خلاف الخمسة عشرة سنة الماضية وهذا الالتزام الشهري المزعج أحد القيود المسيطرة على مجرى حياته العملية.

كانت مزنة تمارس دورها السيادي على الخادمة عبر العديد من المهام التي يجب إنجازها قبل أن تصحو من قيلولتها صاح بها وضاح:»يا مزنة.. يا مزنة... ردت بصوت خافت:عسى ما شر فضحتنا عند الجيران»! قال بصوت جازم وقاطع «ما هو ابن باين

اللي يبني بيته حسب توجه عاصفة المصالح.! لا يا مزنة. حتى لو طلبوا أن أغير لهم كل يوم شعار الثابت باقي يا مزنة والمتحرك زائل زائل....»

الإبداع القصصي عند صالح الصقعبي

بقلم الأستاذ الدكتور/ محمد العبد

[١]

تضم هذه المجموعة من القصص التي حملت هذا العنوان الطريف "البحث عن أنف " للكاتب العربي صالح الصقعبي سبع عشرة قصة انفتحت جميعها بوعي وجرأة على العالم من بعده الإقليمي إلى بعده الإنساني العام. وهو انفتاح على العالم يستهدف الحوار معه في عرضه وجوهره وتأمل العلاقات المتشابكة بين الأفراد والمجتمعات من نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية المطلقة. وعلى الرغم من تميز القصة القصيرة مقارنة بالرواية ببساطة تصميم النص ومحدودية الحجم والمغزى، فقد برهن الكاتب صالح الصقعبي على قدرة القصة القصيرة على التعبير عن كل ما يشغل الإنسان في حياته ومحيطه الاجتماعي وعلاقاته بالآخرين وموقفه من العالم ومن منظومة القيم الإنسانية المؤسسة لأسباب وجوده وطموحاته المستقبلية .

ولعل السمة التواصلية الأبرز في قصص هذه المجموعة أن الكاتب يجعل للقارئ فيها دوراً أكبر من مجرد القراءة .إن دور القارئ سوف ينتقل – مع هذه القصص جميعاً – من دور القراءة إلى

دور التلقي بمعناه العام .في التلقي ينطلق الفهم من النص، ولكنه يضع ما يقوله النص في كل سياقاته غير النصية الممكنة. في التلقي يستنبط القارئ ويوجّه ويؤول حتى يصل إلى فهم عبر نصي لمقول القول النصي .

[٢]

في القصة التي يستهل بها الكاتب مجموعته، وهي قصة ((على شان الجمهور))، نري نموذجاً من البشر متحولاً من المثالي أو شبه المثالي إلى المجرم. من كان يتعامل مع الأشياء بحذر شديد، ويحسب ألف حساب لغضب زوجته، ويعامل أبناءه بمسئولية تامة صار – لأسباب يترك النص للقارئ توقع مسبباتها – يحتسي الكولونيا المخدرة، ويضرب زوجته وأبناءه؛ أي صار واقعاً تحت طائلة العقاب، وهو عقاب علني يشهده الناس، وهو ما تنكسر معه كرامته ومعاني الرجولة فيه، كأنما أريد بهذه القصة إلقاء الضوء على لحظات الضعف الإنساني التي يضطر إليها أحدنا اضطراراً يبلغ معه درجة السخرية بنفسه سخرية مُرّة أمام الناس وهو في لحظات العقاب العلني التي يخجل منها الإنسان بفطرته قائلاً لجلاده: " واحدة على شان الجمهور" !

الكاتب في مثل هذه الموقفية التي تجري فيها أحداث القصة – يوائم بين الحدث أو الخطيئة التي وقع فيها بطل القصة – وبين ما

كـان يمكـن أن يكـون لـو استمـسك بـالقيم الدينيـة والأعـراف الاجتماعية.

والكاتب – من ناحية أخـري – يحـاول أن يـوائم بـين الحـدث واللغة المستخدمة في وصفه والتعبير عنه. وهو يستخدم هنـا تقنيـة الموازنة بين حال ذلك الرجل قبل العقوبة وحاله بعـدها.ومـن ذلـك مثلاً قول الراوي:

" يعرض كل تصرف يقدم عليه كـبيراً أو صـغيراً علـى حافظتـه المعرفية " (قبل العقاب).

في مقابل قوله: " يحتسي أول كأس من المشروب الروحي – كما أضحي يسميه – متناسياً....." (بعد العقاب) .

أو قول الراوي على لسان البطل:

" أنا أتعرى أمام الناس ؟! .....أربعون عاماً وأنـا أحـافظ علـى صورتي أمام هؤلاء الشهود، ماذا حصل ؟ ماذا حل بي ؟ أيـتم كـسر كرامتي وحياتي هكذا ؟! ".

في مقابل قوله :

" إلا أن أحاسيسه وكرامته انكسرت مع السوط الأول، مما دعـاه بعد أن قال الجلاد " ثمانين " إلى الالتفات إلى الجماهير المحتـشدة في ذلك الميدان، نظر إليهم وبسخرية موجعة قال: " واحـدة أخـري على شان الجمهور " !.

لا شك أن مثل هذه الموازنات بين حالين لشخصية البطل مما يقوي الطابع الدرامي المأساوي الذي أرادته القصة .

[٣]

هذا، ومما يلفت الانتباه في قصص هذه المجموعة انشغال الكاتب بالمستقبل. في قصة " هي والسيف الخشبي "، يتذكر سيف حادثة مؤلمة تعرض لها هو وزوجته منيرة ذات يوم. وهنا يعزف الكاتب على وتر الكرامة الإنسانية حينما يعجز سيف عن الدفاع عن زوجته التي اعتدي عليها اللصوص، فتجرح كرامته ويصبح زواجهما معرضاً للانهيار.

والكاتب يعني في سرد حكايته بما يعمّق الشعور بالمأساة والعجز: " لقد كان مشهداً مؤلماً، يقطر دماً، مرارته تحرق العقل والقلب وتشل كل الأوردة، تحيل كل الأمور إلى أشواك تنهش روحه كما نهش لحم زوجته أولئك الوحوش البشرية ".

القصة مبنية على تقنية الاسترجاع أو ما يسمي تعريباً بـ " الفلاش باك". وهي تقنية استعملها الكاتب في غير قصة. ومن الطريف هنا أن الكاتب في سرده استرجاع سيف هذه الحادثة – وقد صار لعجزه سيفا خشبياً – يجعل من المرآة أداة لمكاشفة الذات ومواجهتها والكشف عن دواخلها . لقد نجح الكاتب في رسم هذه

العلاقة الطريفة بين الشخصية القصصية وبين المرآة. الشخصية القصصية عندما تريد في خضم واقعها الملتبس أن تدرك الحقيقة المستقرة تلجأ إلى النظر في المرآة. لعل ذلك يرجع إلى إدراك الكاتب بوعي الخبرة أن المرآة لا تغير رأيها، وأن المرآة لا ترى للحقيقة إلا ما ينبغي لها أن تُرى عليه دونما زيادة أو نقصان، وأن المرآة إذا نظر فيها ناظر فعليه عهدة ما رآه، وأن المرآة إذا قال الناظر معها شيئاً على غير ما رأي فيها في حين من الأحيان، فذلك مردود إليه؛ وذلك أن المرآة – في كل حين – ليس لها إلا كلمة واحدة!.

[٤]

وتظل " المرآة " تلعب دورها الخاص في القص عند صالح الصقعبي؛ ففي قصة " البحث عن أنف " يجعل " أحمد" من المرآة أيضاً أداة لمكاشفة الذات في صدق ودونما خجل. يكشف أحمد بالنظر في المرآة عن تقصيره في حق بلده وعجزه عن الفعل. يقول الكاتب على لسان تلك الشخصية: " تائهاً أنت! بين أنت وأنت! تري أيهما أنت ؟! كيف تحملك قدماك ؟ وإلى أي جزء من أجزائك ستعبر أنت ؟ هل حددت ساعة الصفر ؟ وأعددت القرار ؟ . عندما تحس بضرورة توحيد أجزائك واكتمال أعضائك في شيء يكون في النهاية أنت. بلا شك ستكون اللحظة التي ترى فيها ذاتك موحداً. بسرعة

وبقسوة توجه إلى المرآة واضعاً رأسه في قلبها، وأخذ يهذي. وبقوة أخذ يردد والزبد يتطاير من فمه:

قل لي بربك: من أنت ؟

قل لي بربك: من أنت ؟".

وفي غمار القصة يشعر أحمد بجفاف مدمر، فيطلب من أخته هند كأساً من الماء. وتعطيه هند الكأس ليشرب، فيعلق في حوار مؤثر:

– " لقد ارتويت يا هند. ولكن من يروي الصحاري المتزايدة في كل شبر ونفسي ؟ ". ويزيد من ألمه سماعه في المذياع أغنية " أمجاد يا عرب أمجاد. في بلادنا كرام أسياد ". وهنا يحملق في المرآة بلا هدف. ويجعل الكاتب للفانتازيا في حركة القص دور الخروج من المعقول إلى اللامعقول: " تاهت معالم وجهه. بدأ يبحث عن تضاريس هذا الوجه. فجأة رأى أنفه يتدحرج عند مؤخرة المرآة. تاه في إحدى زواياه البعيدة. فلينظر أكثر. أن تلك التي تتدلى في الأعلى أذنه. نعم، كيف يتم توحيد أعضائه مرة أخرى حتى ولو على صفحات المرآة ؟ ".

ليست هذه الصورة الفانتازية الكاريكاتورية إلا تعبيراً عن تشوّه صورة الإنسان العربي الذي يعيش الحيرة والعجز عن الفعل وفقدان الشعور الحقيقي بالكرامة .

[٥]

وكأنما تسلمنا هذه القصة إلى القصة التي تليها. وهي: " خانة المفعول به". وهي – على رغم قصرها الشديد – قصة مفعمة بالدلالة على الشعور السابق ذاته بالعجز عن الفعل. هل اعتاد الإنسان العربي – لظروف أنظمة سياسية – على أن يكون مفعولاً به لا فاعلاً ؟. يقول الكاتب على لسان إحدى شخصيات القصة: " ومتى كان الفعل بأيدينا ؟ لم نتعود يا سيدي أن نتعامل مع الفاعل، منذ زمن ونحن نجيد التمدد في خانة المفعول به "!.

[٦]

أما قصة " عمي نهاب "، فتعالج مشكلا اجتماعياً يعانيه المجتمع العربي في غير مكان، وهو طمع بعض الرجال في أموال زوجاتهن، مثلما كان من زواج " نهاب " (ولاحظ دقة اختيار اسم البطل ودلالته على سلوكه) من زوجات أخيه الثلاث بعد وفاته تحت ذريعة حمايته أموالهن من زوجة رابعة وولدها " مشعل ".

وتنتهك حقوق مشعل وأمه، ويأتي اليوم الذي يشعر فيه " مشعل " بذلك، فيستعين على إرجاع حقوقه بخاله. ويدرك القارئ أن الكاتب أراد بهذه القصة أن يؤكد حقيقة أن صاحب الحق يكون شريكاً لمن سلب حقه إذا سكت عن حقه ولم يجتهد في استرجاعه.

الكاتب هنا يعزف إذن على أوتار المقولة الشهيرة: ما ضاع حق وراءه مطالب"، ولكنه يعزف عزفه بلغته الخاصة وأدواته الخاصة.

[٧]

وفي قصة أخري هي " صدي" يقدم الكاتب نموذجا آخر من الناس يمثل الشخصية الانطوائية التي تعاني من العجز عن الانخراط في محيط الجماعة والتفاعل والتعبير عن الرأي. وسرعان ما نكتشف أن هذه الانطوائية هي ثمرة التنشئة الاجتماعية التي نشأ عليها وعوّده عليها أبوه ، وهي الانزواء في ذيل المجلس، فلا يشارك الآخرين محاوراتهم ومسامراتهم. كأنما يريد الكاتب أن ينبه إلى أهمية التنشئة الاجتماعية منذ الطفولة في حياة الإنسان بعد ذلك. ومرة أخري نجد " المرآة " وسيلة الشخصية القصصية في مكاشفة النفس وتأمل الذات. فالمرآة رفيق صامت يُري ويكشف ولا يفشي سراً: "دخلت إلى المنزل؛ أصرخ بأعلى صوتي ، ألقي بكلمات غير مرتبة أشبه بوابل رصاص من بندقية جندي مستجد. تناثرت صرخاتي في أرجاء المكان. أضأت نور الغرفة. رأيت وجهي في المرآة. إنه أنا. أنا ذلك الذي ملأ المكان ضجيجاً. إن صوتي سليم .

نعم، أستطيع الكلام، فلأجرب صوتي في النور. أحاول. لا صوت يظهر. أعاود المحاولة. أفشل مرة أخري. أعود إلى المرآة. وأنت ثانية يا أبي. اطمئن. لن أتحدث بوجود الرجال. لن أجلس معهم.

سوف أعود لنفس المكان الذي عودتني على الجلوس فيه. نعم سأجلس في ذيل المجلس. نعم يا والدي سوف أصمت،نعم سأظل جالسا بجانب النعال، وسأكتفي بصدي الصمت".

هكذا تؤكد القصة مقولة الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوَّده أبوه

وهي مقولة تبرهن على مصداقيتها نظريات علم النفس والاجتماع. والكاتب في هذه القصة يجعل من المونولوج أو الحوار الداخلي تقنية سردية تكشف عما تختزنه النفس ولا يكاد يعرف الآخرون حقيقته .

[٨]

وفي قصة " الهرم المقلوب " يعالج الكاتب من خلال شخصية "أبو سليمان" مشكلة اجتماعية تضرب بأطنابها في بنية المجتمع العربي ؛ وهي مشكلة "المحسوبية "؛ فأبو سليمان هذا تنهمر عليه الترقيات بدون وجه حق حتى يصير مدير الإدارة لمجرد أن زوجته الجديدة هي أخت المدير العام من الرضاعة، وهو من كان عمل بإخلاص وتفانٍ ربع قرن من عمره لم يجد فيه ثمن ما يجفف عرقه. وكانت دهشته من أن ما قاله له صاحبه – ذات يوم – بأن الهرم مقلوب كان عين الصواب!

ولا شك أن " الهرم المقلوب " مفهوم يعكس خللاً في منظومة الحقوق والواجبات في المجتمع العربي. ويعاني الناس من آثاره الاجتماعية والنفسية السيئة .

هذا، وقد حرص الكاتب على مواكبة تغير نظرته الشخصية إلى العالم والأشياء. يقول الراوي على لسان صديق " أبو سليمان ": " منذ أكثر من عشرة أعوام لم أر " أبو سليمان "، كان من أعز أصدقائي. ولكن فجأة تعارضت وتضادت نظرتنا للحياة. كان نموذجاً مثالياً، يقرأ النص، يحفظه بحرفية ودقة متناهية ". تريد هذه العبارة الوجيزة سريعة الإيقاع أن تظهر للقارئ صديق " أبو سليمان " وقد تحولت نظرته إلى الحياة تحولاً مفاجئاً: " قال: يا صديقي ما أبعدني عنك طيلة هذه الفترة هو اعتقادي بصحة وضع الهرم، لكوني يومها عجزت عن استيعاب صورتي عندما استبدل رأسي بقدمي، واعتقدت حينها أنك مأجور أو مجنون ".

هكذا تقدم هذه القصة نمطاً من البشر تنعزل نظرتهم إلى الحياة عن أرض الواقع المليئة بالعجائب والغرائب والمفاجآت. والكاتب يلقي على لسان تلك الشخصية بما يترجم نظرتها الخاصة، ثم يكشف عن تحول تلك النظرة بعد معايشة ذلك الواقع العجيب. وهنا ترسم العبارات هذه الصورة بما يكون فيها، أو بما تقدمه للقارئ من متناقضات وتحولات.

[٩]

أما قصة " دجاجة تني " فهي من أطرف قصص المجموعة، وهي من القصص الخيالي الذي يجعل من الطير أو الحيوان موضوعاً له. والخيال في تصور القارئ للدجاجة وهي تشعر وتتكلم وتفصح عن آرائها. هي إذن قصة مبنية على الفانتازيا والمفارقة معاً. بطلة القصة دجاجة تشكو من ازدحام الحظيرة بأشقائها وشقيقاتها، دجاجة تشكو الحبس في هذه الحظيرة. دجاجة تشعر بتفاهة " عالم الدجاج "، وبعد أن ذبحت وأودعت الثلاجة عادت تشكو من ظلم السجان الذي وضعها بتلك الثلاجة وحدها في ذلك الحبس الانفرادي. وهي تحاول التقاط بعض ما يدور خلف هذا العالم. وهى تندب حظها العاثر الذي جعل غيرها من " أمة الدجاج " لا تحس بما حولها، وجعل منها دجاجة تدرك ما في رأسها حتى بعد قطعه. وهي تشكو أخيراً صاحبها، هذا السيد " تني" الذي أنهي حياتها عبر معدته وأمعائه بعد تعذيب متكرر. وتبلغ المفارقة ذروتها حين يقول الكاتب على لسان هذه الدجاجة " وكان يوماً مشهوداً عندما قرر السيد أن يولم لأصدقائه، حيث جلب العديد من حفيداتي اللاتي فوجئن بكوني لم تفرمني أمعاء إنسان بعد وجعلوني أول المهضومين في تلك الوليمة ".

هي إذن قصة فانتازية، تلعب الفانتازيا فيها دوراً رمزياً في إنتاج دلالة القصة على رغبة الكائن الحي في الحرية وكراهيته الظلم وهضم الحقوق الذي يمارسه القوي مع الضعيف. لكننا نري – من ناحية أخري – أن هذه الفانتازيا الرمزية التي بنيت على عالم " أمة الدجاج " قد استمدت خيوطها وأصولها من واقع حقيقي تعيشه " أمة البشر " في كل يوم، بل في كل لحظة. ولا شك أن المفارقة في عبارات مثل: " أمة الدجاج " أو " وحدها هذه الدجاجة نمت لديها قنوات استشعارية " أو " زحمة يا دنيا زحمة " (على لسان الدجاجة) أو: " حصل لها ما لم يحصل في عالم الدجاج كلهن تموت ذاكرتهن بعد قطع الرأس إلا هي؛ فلم يكن مركز المعلومات لديها في الرأس، بل كان مختفياً في جسدها، ينتقل ويختفي كما هي حكاية سلاح الدمار الشامل ".

لا شك أن مثل هذه المفارقات هي وليدة تلك الفانتازيا الرمزية وسندها في الوقت ذاته في إنتاج الدلالات السابقة للقصة .

شكوى الدجاجة من سجنها في القصة السابقة يختلف كثيراً عن شكوى هذه الصغيرة في قصة " بنت الملجأ " من الملجأ التعيس الذي وضعها فيه والداها وهما على قيد الحياة على رغم ما لديهما من

قدرة مالية على إعالتها. تزوج أبوها بزوجة آخري، وانصرفت عنها أمها المطلقة، وصارت هي ضحية حياة زوجية فاشلة، فكان مآلها إلى هذا الملجأ. ولكنها تذوق الظلم ثانية عندما يخرجها أبوها من الملجأ وقد بانت عليها علامات الأنوثة ليزوجها من رجل مسن. خرجت من سجن الملجأ إلى هذا السجن العائلي مع ذلك الزوج الذي لم يرع حقوقها الزوجية، وهو ما يفتح – كما تحكي القصة – طريقاً للانحراف .

هي إذن حكاية قديمة جديدة، لأنها – على رغم طول العهد بنتائجها السيئة – تتكرر في كل يوم.

تريد القصة أن تلفت الانتباه إلى أن المجتمع القوي المتماسك هو الذي يعيش فيه الأبناء تحت مظلة الآباء ورعايتهم منذ الصغر الرعاية الحقيقية.

وكذلك تريد هذه القصة أن تلفت الانتباه إلي أن المجتمع العربي لا يتعلم دروس الحياة و تجاربها بالسرعة المناسبة !.

[١٠]

تسلط الآباء على الأبناء في القصة السابقة يتخذ وجوها أخرى في تسلط المسئولين الكبار في المصالح الإدارية وظلمهم لموظفيهم. هذا ما

تحكيه قصة "نعي ترقية ". بطل القصة لم يزد مرتبه منذ عشر سنوات على رغم أن مرتبات الآخرين تسير بسرعة مذهله في الزيادة الشهرية. يجهل هؤلاء المسئولون أحياناً الأثر السلبي لعدم المساواة بين أبناء العمل الواحد. وتلتقط القصة فكرة طريفة؛ وهي أن ينعي أحد هؤلاء الموظفين المظلومين ترقيته في الصحف، بدلاً من أن تكون مصدراً لسعادته ، وذلك أنها تأخرت عن موعدها ففقدت طعمها! .

يقول الكاتب على لسان البطل في خاتمة القصة: " أنعي تعبي وعرقي، أيامي التي كان ثمنها ترقية موعودة. فوجئت هذا المساء بموتها قبل عشرة أعوام ! ".

في مجتمع مثل هذا تصير التهنئة بالترقية نعياً؛ لأنها صارت نعياً للطموح والنجاح الوظيفي الذي تشجع عليه المجتمعات المتقدمة .

[١١]

هكذا رأينا انشغال قصص هذه المجموعة البديعة الشائقة بما يعد من صميم الحياة الاجتماعية في مجال المعاملات، وعلاقات القرابة، ومنظومة العلاقات الوظيفية الإدارية. وربما عالج الكاتب – كما رأينا – موضوعاً واحداً في أكثر من قصة بتنويعات مختلفة

وأساليب فنية متفاوتة. وكنا قد رأينا الإنسان في حالات عجزه المختلفة وما لذلك من تأثيرات نفسية حاضرة ومستقبلية موضوعاً أثيراً لدي الكاتب، كما كانت تقنيات الاسترجاع والفانتازيا والمفارقة الساخرة والحوار الداخلي أهم تقنياته السردية. لقد برهنت هذه المجموعة القصصية الجديدة للكاتب صالح الصقعبي على انفتاحه على هموم مجتمعه الصغير والكبير في آن معا، وما يعترضه من مشكلات وتناقضات وتحولات تعكس جميعاً خصوصية نظرته إلى الأشياء والعالم. لقد كانت هذه المجموعة شهادة ناصعة على تواصل الكاتب مع واقع مجتمعه وطموحات قومه تواصلاً واعياً، يستهدف تشخيص العلل الاجتماعية مهما كان قدرها وخطرها من أجل تغيير سلوك الناس ومواقفهم تجاهها تغييراً إيجابياً باطنه فهم ووعي واقتناع .

لقد وعي الكاتب سمة من أهم سمات فن القصة القصيرة؛ وهي التكثيف على معني استبعاد كل ما هو هامشي إلا إذا كانت له تأثيرات واضحة في التصعيد الدرامي للحدث أو تفسيره.

من ناحية أخري، وعي الكاتب مسألة مهمة في كتابة القصة القصيرة؛ وهي إعطاء الأولوية للحدث على شخصيات القصة إلا إذا كانت مقصدتها تسليط الضوء على الحدث من خلال الشخصية.

ولعل أهم ما ينبغي لنا إبرازه في خاتمة هذه الكلمة أن الكاتب يبدو لنا كاتباً من موقع الهاوي العاشق لألق الكتابة لا المحترف الذي يجري وراء"التقليعات"، ويصير الانطباع الأقوى لدي قارئ هذه المجموعة القصصية أن النص يكتب نفسه بنفسه ببساطة التهادي إلى عقل القارئ وشعوره بأبعاده الجمالية غير الاستثنائية سواء ما يرتبط بهذه الأبعاد من حيث الأداء الأسلوبي،أو من حيث القدرة علي التشخيص، أو من حيث ماهية الأفكار التي تمس جوهر السلوك الإنساني .

أ.د. محمد العبد

المحتويات

الموضوع	صفحة
- الإهداء	٤
- شكر	٥
- على شان الجمهور	٧
- هى والسيف الخشبى	١٣
- البحث عن أنف	٢١
- خانة المفعول به	٢٧
- ثاقب النظرة مات	٣٣
- الرأس والشبح	٣٩
- عمي ذهاب	٤٧
- صدى	٥٥
- الهرم المقلوب	٦٣
- دجاجة تني	٧١
- بنت الملجأ	٧٧
- غاب عقله وتلوث فهمه	٨٧
- نعي ترقية	٩٣

الموضوع	صفحة
- الدائرة المفتوحة	١٠١
- البحث عن فزاع	١٠٧
- نهاية رجل	١١٥
- أنا وهى	١٢١
- شعار وضّاح	١٢٧
- الإبداع القصصي عند صالح الصقعبي بقلم أ. د. محمد العبد	١٣٧
- المحتويات	١٥٣